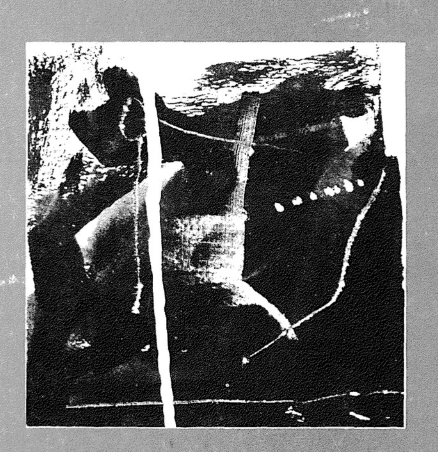
المستحيل والقيمة

تجربة فى الديالكتيك



بدر الديب

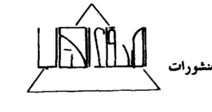
المستحيل والقيمة

تجربة فى الديالكتيك

بدر الديب

الغلاف للفنان : آدم حنين

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى إبريل ــ ١٩٩٠

منشورات 

٣ عدنان المدنى ــ الصحفيين ت : ٣٤٦١٨٣٢

المحتويات



تمهيد أولى
المستحيل والقيمة
مسئولية شخصية

هل هناك خط أو أرض أو مسافة تفصل بين المستحيل والقيمة ؟ وهل نستطيع أن نحدد أرض كل منهما أم أنهما لايقومان فى أرض منفصلة بل يتواجدان ، إذا وجدا ، فى أرض واحدة ؟ وهل يوجدان أم يتواجدان فى وجود كل منهما ؟

لقد بحثت طويلا عن المستحيل والقيمة وأظننى لم أسع إلا لذلك فى حياتى كلها . ولكننى فى كل الزمن الذى مرَّ لم أحصل عليهما . لقد بحثت عن المستحيل فى التاريخ وفى الإيمان وفى مراتب الوجود المتعددة . وكان دائما الوعى ينفى المستحيل . وكان المستحيل يستحيل إلى ذكرى . وأظن أن البشر جميعا مثلى . وقد تحقق لى ذلك عندما راجعت القواميس العربية الكبيرة فلم أجد للمستحيل معنى إلا الاستحالة أى التحول أو عدم الاستقامة أى التحول عنها . وهكذا فى المعاجم تصبح العين والأرض والقوس مستحيلة بمعنى أنها غير مستقيمة ويمكن لأى قارىء أن يتمتع بمراجعة اللسان .

ولكننى قد أدركت قبسا من المستحيل وإلا لما كتبت هذا الكتاب . وقد تبين لى بعد أن كتبته المعنى الحقيقى للمستحيل ومن خلاله أدركت كيف توضع القيمة . ولست أدرى إذا كان من الممكن أن أحكى حكاية هذا اللقاء مع المستحيل وموقع هذا اللقاء مع القيمة .

فمع مجرد القص يتجدد الوعى ويتحقق التذكر ، وينتفى كل منهما . ولهذا فأنا أحاول بهذه المقدمة أن أستبقى ما تحقق دون أن أشير إليه ومتيقنا أن كل ما وقع وما تحقق قد يكون شيئا آخر تماما غير المستحيل والقيمة وخاصة عند القارىء الذى لم يستعد لهذا اللقاء أو لا يقبله . فأنت قادر مقدما على أن تنفى ما تقرأ وأن تسقط ما تحقق فى عالم الممكن حيث تنتثر القيمة التى لا تتولد عن المستحيل .

ولكننى أدركت فى حدس بسيط ساذج ــ وإن لم تدرك سذاجته واستحالته فلا فائدة من القيمة أو المستحيل ــ أن المستحيل هو إعجاز الاكتمال . والاكتمال كحقيقة منفى ، ولكنه حركة الوجود ، أى أنه طبيعة الوجود واتجاهه ووجوده بمعنى صراعه مع نفى نفسه . فإذا نفيت الاكتمال عن الوجود فقد أحلته إلى عدم وربطته بجزئية الزمان والمكان أو بازدواجية الوعى .

ومع أن المستحيل هو خام لم يُصغ فإن القيمة هى التى تجعله جوهرا خالدا ثابتا أعلى من الزمان والمكان .

وليس بعد هذا الكثير مما يمكن أن يقال . فالأوراق كلها فى يدك واللعبة لعبتك . قد تكون الأوراق كلها بلا قيمة ولا مستحيل أو بلا مستحيل ولا قيمة وفقا لما تريد أن تقامر عليه ، أى وفقا للعبتك . فإذا أردت أن تضع كل ما تملك وكل ما صنعت من قيمة فى اختبار المستحيل ، أى اكتمال الوجود ، فأنت حر نفسك وأنت عليك مسؤليتك .

وقد حدث لى أن فعلت هذا ولهذا كتبت ما كتبت وما أضعه أمامك لتنفيه إذا أردت ، أو لتعاين اكتماله فى داخلك إذا أردت أيضا . وقد تحيرت كثيرا فى دور الإرادة فى صناعة المستحيل أو وضع القيمة ولا أظننى قد استطعت أن أحل هذا اللغز بعد . وقد تستطيع أنت .

إن الأمر الطبيعى ، المألوف ، والمنتظر ، أن ينزل القارىء بمستوى الوجود للمستحيل وللقيمة إلى مرتبة الشعور والانفعال وتجارب الحب والعشق حتى ولو دفعهما إلى مراتب التوحد الذى تصنعه التجربة الصوفية . ولكن هذا لم يكن ما قصدت إليه ولم يكن ما أرجو أن يوجد فى التلقى .

فكل ما كنت أطمع فيه وأرجوه ــ وهذا طبعا مستحيل ــ أن أعاين الوجود المكتمل للوجود . فقد تبين لى أن القيمة التى تبقى ــ ولا تنتثر فى عالم الممكن ــ هى وحدها التى تنبع من هذا المستحيل .

ونظرا لأننا بشر ولأننا بطبيعتنا لانستطيع أن نعاين المستحيل ولا أن ندرك ــ أو بمعنى أصح ــ نعاين أيضا وجود القيمة المتولدة عنه ، فإننا نتجه دائما إلى نفيهما كى نعيش وكى نحيا فى الزمان والمكان وفى القيمة المنتثرة فى عالم الممكن . ونحن نستخدم دائما فى الدفاع عن أنفسنا ضد المستحيل وضد القيمة النابعة منه أمرين هما أخص خصائص طبيعتنا البشرية ، وهما الوعى والذكرى .

فإذا كان لا يمكن للوعى أن يدرك اكتمال الوجود فهو دائما ينفى المستحيل ، وإذا كانت الذكرى هى إعادة الصياغة لما تحقق من نفى للمستحيل فهى دائما معيشة للفاجعة التى تنفي ما تضع من قيمة . ففى لغة الزمان ليس هناك مستحيل وفى حدود الذكرى تنتثر القيمة بمعنى أنها لا توجد كمطلق كامل الوجود .

إننى أعلم جيدا أننى قد صنعت وهما وجعلت منه وجودا للمستحيل وقيامة للقيمة . وأعلم أننى سأدفع ، كما دفعت طول حياتى ، ثمن هذا الوهم الذى هو بالنسبة لى كل الحقيقة وجوهرها وصلبها . وإذا كان الوعى عاجزا عن أن يدرك المستحيل وكانت الذكرى ــ بطبيعتها ــ استحالة للمستحيل فإن هاتين الخاصتين للبشرية ــ الوعى والذكرى ــ لا تملكان لتسجيل وتحقيق عجزهما إلا استخدام الاستعارة ، والبديل الممكن وهو الخلق الفنى . فالفن بطبيعته حركة للتواجد ، كعمل وكشىء خارج عن الذات ، هو أقرب ما يستطيع الإنسان لمعاينة وافتعال اكتمال الوجود أى تحقيق المستحيل . وعندما ينظر الإنسان أو ينتظر وقوع المستحيل يكون فى الحقيقة ــ وفى الزمان والمكان الواقعيين فى حالة حب . فالحب وحده الذى يقبل وهم اكتمال الوجود أى تحقق المستحيل ، ومع القبول تقوم القيمة الموجودة خارج الذات . فلو أنك أحببت وقلت بوعيك أو تذكرك أن ما تحب غير مكتمل الوجود فأنت أولا تنفى الحب وتلغى القيمة وأنت ثانيا تعيش فى الزمان والمكان فاجعتك البشرية .

وإذا كانت هذه الفاجعة هى دائما شخصية فإن التلقى والتذوق وبالتالى المعاينة لما تحقق ــ من مستحيل ذى قيمة ــ هو أيضا مسألة شخصية .

ولهذا يجب أن أتوقف ــ وإلا كتبت من جديد هذا الكتاب ــ لأقول أن مسألة المستحيل والقيمة ــ رغم كل اعتراض ممكن ــ هى مسألة شخصية . وهذا الكتاب إذن ، والقراءة له ، والتلقى ، هما أيضا مسألة شخصية يتحمل كل منا مسؤليتها وحده .

بدر الديب

باريس ١٤ / ٧ / ١٩٨٨م

اهداء

إلى صاحبة المستحيل والقيمة

يجب علي أن أتعلم ،
كيف توضع القيمة .
كل قيمة موضوعة ، لا تتحرك ،
حتى يتدفق فى صلبها
دم الحب .
كل قيمة بلا هذا الدم ،
طلل بال
تنعق فيه الغربان .
و كثيرا ما يصنع المرء
من حياته هذه الأطلال ،
وقبل أن تمضي الحياة
تصبح الحياة أثرا بعد عين .

بدر الديب
فبراير ١٩٨٨

١ ــ صور المستحيل



المهر المستحيل

أنا أيضا أريد أن يكون لى مهر ،
أو « دوطة » على وجه التحقيق .
ومهرى ياحبيبتى
هو أصعب ما يكون العطاء .
أريد ياروح القلب نفيا كاملا
مستحيلا لكل ما فى الماضي من قيمة .
أريد أن أراكِ مجردة من الماضي
ومن كل أعراض الزمن .
أريد — وما أقسى ما أريد —
أن تقررى أمام المستحيل
تحقيق هذا المستحيل :
قد استحال الماضى ترابا
قد أصبح فى بدنك نسيانا
قد غدا فى الروح
شيئا تنكره الروح .
وبدون مهرى أو « دوطتى »
أنا أبدا لن أكون .

كهف المستحيل

أريد أن أفنى خاشعا
فى داخل الداخل
من مخارجك
وعندما تدخل الروح إلى كهفها
يصبح البدن كله روحا .
ولم يدرك هذا من قبل
صاحب الكهف المستحيل .

* * *

فى ذات صباح ، فى ذات مساء ،
فى ساعة ظهر ،
فى كل العصارى ،
فى أية لحظة من لحظات النهار ،
عند كل مفرق طرق
تحت كل شعاع للشمس أو للقمر
سيرقد الجسد فى الكهف
الذى صنعته الروح
فيعرف المستحيل
ويرفع الزمن
ويصبح المكان هو كل الوجود .

صناعـة المستحيـل

هكذا إذن يتحقق المستحيل !
ينفجر فى الصخر النور ،
وينسكب الجوهر فى الماء ،
وتبتسم فى السماء النجوم .
هكذا إذن يتحقق المستحيل .
تمتلك المرأة الوجود
ويصبح شعرها دم الحياة ،
وبالقدم واليد ،
وأضواء العيون ،
وبالكلمة التى تكون ، لتقول
وهبتك نفسي ،
وبالروح التى تقبل ما لا يحتمل أن يقبل
ينتهى الماضى وكل لحظات الضياع
ويصبح الوجود
صناعة مستمرة للمستحيل .
هكذا إذن يتحقق المستحيل .

صوتـك الدلفـي

أيهما يأتى أولا ؟
هل تصنع القيمة المستحيل ؟
أم يتحقق المستحيل
فتقوم القيمة ؟
فى حياة البشر ،
تنتثر القيمة فى أرض الممكن ،
ولكنها لا تقوم .
لا تعرف الوجود
ولا يتلبسها الخلود
حتى تقارب المستحيل
وتحققه .
فهل وصلت إلى حلّ اللغز
أم عليّ أن أنتظر
صوتك الدلفي ؟!

القيمة المضافة ...

كل وجود بدونك ناقص ،
كل إنجاز وتحقيق
من غير بصمتك
مزور .
هذا المعنى الجديد للإكمال
لم أعرفه من قبل .
كنت من قبلك مغرورا
مكتفيا بالذات .
والآن عرفت ما لم أعرف ،
عرفت ما هو المعنى للإصعاد
وماهو المعنى للوصول
وماهو المعنى للقيمة
المضافة ...

المستحيل والقيمة

عندما تنقشع الغيوم ،
وتصبح السماء وجهك ،
عندما يصبح الوقت وقتك
وتصير كلماتك أنفاس الحياة ،
وحركة أقدامك مواعيد الوجود ،
عندما يكون الصباح بزوغك
للخروج ،
والظهر موعدك فى البيت ،
والعصر ، والغروب والمساء ،
هى الراحة فى روحك ،
عندما يكون الليل هو
التوجه لعبادتك ،
وتكر الأيام من نورك
فتصبح الحياة شيئا آخر
هو المستحيل والقيمة
فى ديمومة متصلة .
وتصبح الروح جوهراً آخر
غير ما كانت فى أى عصر ،
فقد اختفت كل العصور
لتصبح العصور كلها
روحا واحدة مطلقة
هى اليوم الواحد ، فى جوارك .

انت والمستحيل

مستحيلة أنت فى هذه الليلة ،
ولكننى فى المستحيل
أعرف وأنتظر .
وراء كل مستحيل
قدرتك على رفع المستحيل ،
ومستحيل فى يديك
أن يكون هناك مستحيل .
ومستحيل بمعرفتى
أن يصبح المستحيل ، مستحيلا .
عند كل غربة ،
يمتد منك
الطريق إلى الوطن .
وعند قدميك أينما كانا
يقوم البيت .

٢ ـ مواقع اللقاء



كعبة العيون

كان حقا لنا ، وعلينا
أن نلتقي ،
عند مقرن الأنهار
فى ظل أشجار وفيرة
من سواد الخضرة
وخصوبة السواد .
تزدهر العيون كالزهور
وتجرى فى العروق ،
تحت الجلد ،
أمواج الصفاء والقيمة
فى وجهك المنير ...
وتتجمع البشر لتحج
لكعبة العيون .
ومن جموع الناس
تتصاعد الهوسانا
إن رأيتم ، إن رأيتم
هذى العيون ... !
وفى الوقت والزمن
يصبح المكان
فى كل المكان
وينضوى الزمن
فى عيون الإله .

الصخرة فى البحر

سعيد أنا أن تصطخب حولى
الأيام .
سعيد بما يحدث وما يمكن أن يقع
لأن المستحيل يجمع فى طياته
كل الزمان وأبعاد المكان .
سعيد أنا ومزهو بما تم من عطاء .
سعيد بما مضى وما تم .
سعيد بأننى قد خلصت
من الأعراض والقيم الممكنة .
سعيد لأننى فى كل حين أرى نفسي ،
صخرة فى البحر ، قاعها فى الأرض
ورأسها في السماء .
وعلى مدى البصر ، عند الشاطىء الآخر
أنت دائما قادمة .
حولى تتلاطم الأمواج ،
ويعلوها الزبد .
وأنت دائما سامقة ، مرفوعة الرأس والجيد ،
تسلكين كالحمام الأبيض ، والسفين المستحيل ،
فى معجزة واقعة من التاريخ والحاضر .
تشقين الماء وتفرقين الموج
وعندما تصلين
تهلل الصخرة بالموج
لأنك بقدميك ستقفين فوقها .

توقيتك ....

انظرى فى البدن والروح ،
ساعات مضيئة نابضة ،
على مينائها الأبيض أوقاتك ،
كل ظلام الليل وكل ما فى النهار من نور .
لقد توقفت الساعة فى يدى
وفى الروح والبدن
ساعات كثيرة ،
كلها بتوقيتك تعمل .
فأنت يا حبيبتى ، وقتى وزمانى .

أنت وإبراهيم ..

حبى يا حبيبتى من جوهر النار ،
وأنت فى ناره المتوهجة
تضيئين دائما كالخليل الكبير .
هو برد وسلام على بدنك
وسحابات فواحة فى سماء الروح .
وفى السماء والأرض
يمتلىء الكون والتاريخ
بالمستحيل الواقع .

كـل اللؤلـؤ ..

في قاع البحر ، صدف ولآلئ ،
وفي الأرض ، تحت الماء
هذا الحب المتجدد .
لست بحاجة إلى غواص
ليستخرج الدر الكثير .
فأنا وحدي تحت الماء أتنفس
وأمسك براحتي كل اللؤلؤ ...

أرضــك البكــر ..

جسمك يا روحى غابات ومراعٍ
ومروج خضراء .
وأنا الحارس الوحيد السالك
فى طرقات أرضك البكر .
أصطاد وآكل أو أنهل
من ينابيع لم يعرفها أحد .
جناتك التى تجرى
من تحتها الأنهار ،
تفيض فى طولها وعرضها
عسلا ولبنا ،
وتثقلها الفواكه من كل نوع .
كيف احتفظت يا روحي
بكل هذه الأرض ، لي .

تسبيح ...

يا كنزى الكبير ،
يا روح القلب ،
يا كل الأمل ،
يا راحة العقل والبدن .
يا آخر ما فى الدنيا من أفق ،
يا كل النور ،
يا عطرى الفواح .
يا نعمة العين ،
يا دفقة الدم ،
يا وجهة القدم ،
يا غاية الخطو ،
يا صلب الوجود ،
يا نفى العدم
يا حق البقاء
يا يد القدر
يا حق الخلق
يا باب الخلود ..
يا نهر الفرح ...

قد انتهى عهد الحروب

قد أصبح كل شيء لي ...
وانتهى عهد الحروب ،
وانطوت أرضي كلها
تحت أعلامي .
بعد هذا لم يعد هناك
إلا نور حضورك
وتمضي الأيام .
فلنعبر معا جدار الزمن
ليصبح الوجود كله ، موقعا للحب .

عود على بدء ..

في هذا اليوم البعيد ،
أكمل لى الرب صناعة اللؤلؤة .
وضعتها الأمواج على الشاطيء
مغطاة بالصدف ممسوحة من الماء
والتراب .
وتركتها وحدها على الشط ،
تتناولها النفوس الصغيرة .
وفى كل عام ، عندما يأتى اليوم من جديد .
تتقاطر من لؤلؤتى الدموع ،
فقد ولدت لؤلؤتى غريبة
لا يعرف قيمتها أحد .
ومرت السنوات وتغطت اللؤلؤة من جديد
بالقشور والرمل والتراب
وآثار الأيدى والعيون .
وفى ذات مساء وجدتها وحيدة ،
تحارب فى صوت عالٍ
كل سخافات الحياة
وتحركت روحى فرأت النور
وومض فى القلب بريق اللؤلؤة الداخلى .
وعندما رأت عينى النور
لم تفهم ،
لم تدرك الحقيقه ولا كل الجمال .
ولكن الأثر الباقى ، الذى تركته اللؤلؤة
قد صنع لى كل الحياة ،
أردت أن أمنع نفسى من التقاطها
أردت أن أحرم نفسى من نورها

فقد كنت لا أستحق .
ولكن لؤلؤتى ، بنورها ، قد رأت
مالم أر ،
وأدخلتنا معا فى طريق جديد
من النور .
حملت إليها الروح كل ظلمتها
وحملت إليها اللؤلؤة ، كل صبرها
وكل قدرتها على إضفاء النور
وكما يحمل المرء كنزا ولا يعرف قيمته تماما ،
ملأنى الشك ،
واستقر فى روحى الخوف والتردد .
ولأول مرة فى حياتها ،
قبلت لؤلؤتى التحدى ، لما فى روحى من ظلمة .
وراحت أمامى ترتدى جمالها
وتمسح ترابها ورملها وآثار الأيدى والعيون ،
وقالت لى انظر .
ونظرت مرتعدا وأنا أحمل اللؤلؤة
فى قلبي ،
خائفا من الجمال والقيمة .
وقالت لى اللؤلؤة : « ما أقل إيمانك ،
وما أقل قدرتك على احترام رؤيتك . »
وقالت لى اللؤلؤة : « أنا أقوى من كل ضعف ،
أصعب وأصلب من كل تردد .
لقد عرفت أنك عرفت
وسأصبر حتى يصبح النور الذى هو لى
هو كل حياتك . »
ولم أصدق ، لم أعترف ، لم أقر .
وظللت لؤلؤتى ، فى ظلامي ، تشع نورها ،

منتظرة ، صابرة على ما تعودته من ظلمة
الأيدى والعيون .
وبدأت تتلاحق فى الروح الأنوار ،
ومع كل ضوء تقرر اللؤلؤة ، ما أعرف
من قيمتها .
وأدركت الروح أن الدنيا
يعاد خلقها .
وأن النور الذى تملكه ، هو نور لى .
وقالت لى اللؤلؤة : كل ظلمة فى روحك ،
كل شك وتردد ، وخوف وجبانة
هو نقص فى المعرفة .
واستقرت الكلمات فى الروح
كما استقرت فى قاع المحيط
صناعة اللؤلؤة الفريدة .
وقالت لى اللؤلؤة ، وهى تكشف لى
مافيها من جروح .
« الأنك رأيت آمنت ،
طوبى للذين آمنوا ولم يروا .. »
وقالت لى اللؤلؤة : ماذا تريد .
إنك تريد المستحيل ، وأنا وحدى قادرة عليه ،
امسكنى فى يدك ، ارفعنى من الشط
تستحيل الدنيا والوجود
ويصبح العالم جمالا لا يذوب
ونورا لا تمسسه ظلمة » .
وظللت ، كما ظل البشر ، طول عمرهم ،
لا يفهمون ولا يؤمنون .
كيف يعاد الخلق من جديد .
وقالت لى اللؤلؤه : « لا تنتظر ، بل انظر ،

لاتفكر بل أحب » .

* * *

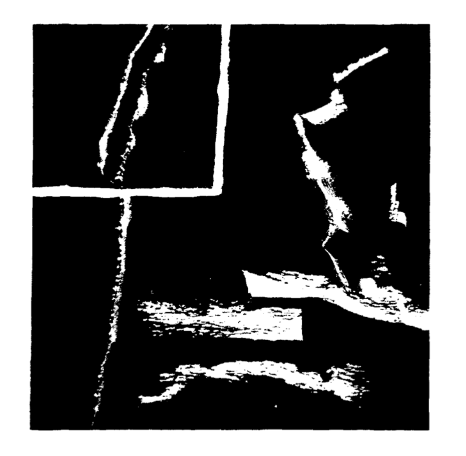
ومرت الأيام ولؤلؤتى على الأرض
تنتظر يدى .
وتقول فى نفسها : هذه هى اليد التى انتظرت .
وسمعت فى روحى همسها الداخلى .
ورأيت وأنا أنظر
أن ثياب الجمال تتجدد ، وأن أمواج النور
لن تنفد .
ووضعتها على صدرى ،
فأصبحت إنسانا جديدا .
فى طرفة عين ، أدركت الروح معنى المستحيل
وعند ذاك تحركت فى داخلها
كل حقائق التملك
وعرفت الروح فرحة لم تعرفها من قبل .

* * *

أضاءت الأنوار بداخلى ،
وانثال من دمى ، دم الحب والحياة ،
واستقرت القيمة ،
كأنها صخور أو لآلىء .
وكما يمس ميداس الأشياء ،
فتستحيل إلى ذهب ،
مست اللؤلؤة الروح
فأحالتها لؤلؤة .
وعند ذاك نامت الروح على الشاطىء
فغطتها اللؤلؤه بالصدف .
وقالت لى : « لقد أصبحت ملكي ،
كل قشورى وصدفى وترابى وآثار الأيدى والعيون ،

كلها لك ،
كلها ملكك وكلها من صنع غيبتك .
أنت وحدك الآن المسئول
عن الجمال والقيمة » .
وعندما استقرت فى الروح المسئولية
وأدركت الجمال والقيمة
حققت اللؤلؤة المستحيل
فاستحالت اللؤلؤة ،
لؤلؤتين لاتنفصمان .

٣ ـ توكيد القيمة





خلف هذا المستحيل ..

مازلت أركض ،
خلف هذا المستحيل .
كلما أدركت منه نورا
أغرقت فى ظلام لا يريم .
يا ربة العدو الذى لا ينتهى .
متى أدرك هذا المستحيل ؟
كلما أدركت فى اللحظة
بعضا من هذا النور ،
أدركت فى اللحظة
أن الكل لا يطال .
وأن الذى أمسكت به
هو أيضا لا يقال .
وفى ساعات الظلام
تمتد حتى لا تنتهى ،
حلكات العدم .
ويصبح الإدراك للمستحيل ،
هو وحده المستحيل .
فهل ينفصل المستحيل
عن المستحيل ؟
ويستحيل للإدراك
أن يدرك المستحيل !

يا قاربى ...

يا قاربى العابر نحو شطآن غريبة ،
على هذا الأفق البعيد ،
مدائن وأنوار .
وفى اللجة التى تنفرد بى ،
ظلمة وإظلام وبرد شديد .
أين منى هذا الدفء الموعود
ببيت وإطعام للروح .
أين منى هذا النور البعيد ،
سكن وسكينة .
هل سيمضى القلب عابرا اللجة ،
أم سيغرق منحطما
فى الطريق ؟! .

هل تعرفين قدرتك ..

ماذا فعلت بى يا ربة القيمة ..
أمازلت لا تعرفين قدرتك ؟!
كيف أجعلك تعرفين !!
فى كل مكان أنت الآن ، إلا مكانى ،
تسبحين فى زمان غير زمانى .
والأصدق والأحق ،
أنك تنيرين بعيدا عن عيونى .
حلت على الآن وحدة
هى سجن .
وأحاطنى رعب ورعدة
هما شلل .
وانكسرت أمواجى محسورة ،
فبقيت وحدى على الشط .
أتقلب فى الرمل والحصى .
وأمد يدى فلا ألمس
نعمتك .
هل تعرفين قدرتك !

ليلة القدر

« سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عما تدعو به إذا أدركتها فقال لها : قولى : اللهم إنك عفو كريم ، تحب العفو فاعف عنى . »

رواه الترمذى .

أين منى هذه الليلة ،
ليلة القدر ،
ليلة العفو !
هل على هكذا دائما
أن أنتظر .
فى كل ما أفعل أنتظر .
فى كل ما أبصر ، أنتظر .
كل حركة ، كل نأمة ،
خلفها هذا الانتظار .

* * *

القول فى الليلة ثقيل ،
وطاقات الرجاء مغلقة .
وعندما تنفتح الطاقة ،
أأكون قد متّ ؟
وماذا ينفع القلب
بعد أن يموت .

* * *

العفو ، العفو ، يارب العفو ،
ارحم القلب الخاطىء فى حقك ،
واغفر الذنب المرتكب
فى الظلام .
وارحم الروح التى تطمع
فى المستحيل ،
فليس أقسى على القلب
من انتظار رحمتك .

رب الفلــق ...

فى الفجر يشتد ظلام الليل ،
ويرتعد البدن بالرغبة ،
ويهتف الإنسان برب الفلق ،
لينشق النور بداخله
ويعرف الحق
فى لحظة الخلق .
وينتفض الكون لينام ،
تحت نبضات النور .
هل يفهم الخلق لحظات الخلق .

غـزوة الاحـلام ..

أحس فى لحمك النائم
حس الحلم وخطواته .
وأخاف من خشيتى عليك ،
من خطو هذا الخاطىء المتطفل ،
على حسنك الساكن الأعزل ،
وانا وحدى على شاطىء حسنك ،
أصد بسلاحى الشاكى ،
غزوة الأحلام .

مواعيـد النـوم

تعالى يا جميلتى نعيش لحظة
بلا مستحيل ولا قيمة .
تعالى يا جميلتى نعيش كالشجر ،
كحملين بلا نور
غير نور الخضرة .
نرعى فى الفجر الضوء
ومع الشمس الضياء .
وتلعب أشعات النهار
على البدنين الصغيرين ،
وعندما تنضج الشمس
تحين مواعيد النوم .

تقــول أشجــارك ..

رويت أشجارك اليوم ،
فى أوانيها الصغيرة .
وقالت لى واحدة منهن :
أين هى ؟
وسمعت وخجلت ، فلم أرد .
فقالت : إنك لا تعرف ،
فيك غلاظة ، وخشونة
وماؤك يتدفق بقسوة .
قلت نعم ، وسكت .
وعندما ذهبت للأخرى ،
قالت بوضوح وجلاء
لا أريد . ولكننى لم أقتنع ؛
مسست تربتها بيدى
ولم أعرف ، جافة هى أم لا .
ودفقت الماء ، وكدت أبكى من الجهل .
وعند الثالثة ، الجالسة على الأرض ،
وراء المنضدة ،
وجدت حنانا ورأفة .
وقالت لى : مسكين أنت فى وحدتك ،
أنت الذى تحتاج لمائها .
وخجلت كأننى ــ فى يديك ــ تعريت .
ماذا تملكين لكل كائن فى كوننا ؟
الصوت والنور والعطف والمحبة .
عودى ،
فلا معرفة بدونك ولا قيمة .

كان هناك أسد ...

كان هناك أسد ،
وكان يعيش فى الصحراء .
وفى ذات مساء ،
دخل الأسد خصا صغيرا
من البوص .
وهناك على القش
وجد العذراء .
وتقدم الأسد ليفترس ،
وإذا بالعذراء تمد يدها
على لبدته .
وعندما نام الأسد
ذبحته .

ومحوت ما كتبت ..

ماذا فعلت بنفسى وإلى أين وصلت .
لم أعد أستطيع أن أنطق
إلا أن كتبت .
قد عدت فى الدورات إلى ما بدأت .
لم يفهمنى أحد ولا أنا فهمت .
فى يوم من الأيام تصورت
أننى بالمستحيل أمسكت .
وإذا بالذى فى قبضتى
تراب من تراب الأرض
الذى تعودت .
وفى داخلى استحالت
ومضات الخلق والنور ،
إلى هذا الظلام الذى عرفت .

* * *

سكت ، سكت ، لم أنطق ،
وكتبت ، ومحوت ما كتبت .

٤ ــ تقرير المستحيل





من
تجارب قمر الزمان

قصص واقعية
من
ألف ليلة وليلة

الكتاب الأول
ليلة المستحيل

على تلال التاريخ ،
فى غير ما هو مسجل من صفحات ،
كان أبى الملك شركان
يصنع فى كل يوم حروبا .
لم تكن لأحلامه حدود .
كانت بحور الدنيا السبع ،
جزءا واقعا من أحلامه .
ولم يكن يرى فى الأرض
بين البحور ،
غير ظلال لنفسه التى لا تهدأ .
وكان أبى فى كل يوم ،
يتركنى مذ كنت رضيعا
فى قصور المملكة المتباعدة .
أنشأ بلا أب ولا أم ،
ولا أسمع فى كل صباح
غير أصوات الجيوش
وهى تتحرك .
وصورة أبى على الأفق
موسومة بالدروع والحراب ،
فوق الخيول والعربات .
كان أبى كالشر المطلق ،
نصف الوجود .
ولم أكن أعرف من نصفه الآخر
غير الظلمة والحلم الفريد
بأننى رغم كل شىء
قد أكون شيئا آخر .

* * *

لم يكن أبى يعدنى لشىء ،
فقد أعد كل شىء لى .
كانت له السيطرة والحق .
ورحت أسعى بكل جهدى ،
وحياتى ،
أن لا أكون شيئا من أشيائه .
ولم أكن أعرف كيف أفعل هذا
إلا بأن أترك نفسى للوجود ،
للفجر ، كل فجر ، وللصبح كل صباح ،
وللنسيم والورود ،
ودفقات المياه ،
فى الأكواب والنافورات
والقنى المحفورة فى أرض القصور .
وكلما كبرت زاد الوجود واتسع
وأشرقت الشمس وراء الأسوار ،
لأعرف القنوات فى الأرض وشطآن الأنهار ،
ومبادىء الأدغال
على مسافات قريبة
من أبوابى المحروسة .
وعلى كل باب
كنت أسمع كلمات الحراس :
إلى أين أنت ذاهب ؟
ولم يكن لى جواب ،
غير الابتسام
لأننى ، فقط ، كنت أريد
أن أكون .
ولم يكن هناك ما يمنعنى
أن أكون .

* * *

ولكن من ذا الذى يدرى
كيف تكون الحياة . .
نحن نصنعها ولكن هى التى
تصنع ما تريد بنا .
وكلما أردت أن أعرف من هى ،
اختفت منى كما تختفى الجنيات .
فقد كانت الأيام تمر ،
كما تمر السحابات فى السماء .
ومع طلوع كل شمس
أخرج لأكون ، ولكننى فقط
أعيش وآكل ، وأشرب ،
ومع السن بدأت أعرف النساء .
كنّ فى القصر كالأكل والشراب ،
لا ميزة لإحداهن على الأخرى
إلا باللحظة التى أنا فيها ،
وبالحلم الذى يداخلنى وأنا
أتبطنها مريدا واعيا وحدى .
وكنّ يتضاحكن وهنّ يقمن من تحتى
قائلات بألوان عديدة
من العبارات والحركات ،
أن لى فى بدنى أخرى لا يعرفنها ،
وأنها قد سيطرت على روحى وبدنى ،
فلم أعد موجودا بالنسبة للأخريات .
لم أكن أفهم تماما ماذا يعنين ،
ولكنى كنت أحس صدقا جسميا غريبا
فيما يقلن .
كانت هناك دائما أخرى
لا أعرف من هى ...

* * *

كانت رجعات أبى للقصر
من حروب عديدة .
ومن معارك معروفة يسجلها
الكتاب والمؤرخون .
وكنت أعرف ماذا يفعل ،
ولكنى لا أعرف لماذا يعود أو يذهب .
وتكررت رجعاته على مر السنين ،
وفى كل مرة يزداد غربة وتفردا ،
وأحس أنه قد أصبح كائنا
لا صلة لى به على الإطلاق .
كان يعود ، ويجمع المجلس للدولة ،
ونعرف أن المملكة قد اتسعت ،
وأن الملك الفلانى قد دان بالطاعة ،
وأن أموال البلاد المفتوحة ،
تتدفق علينا مع الأسرى والجوارى ،
والذهب والياقوت والألماس ،
وحيوانات غريبة وأدوات مصنوعة
لم نكن نعرفها من قبل :
مزاول ومناظير ومعايير للعطور ،
وألوان من الطيوب والأدوية والعقاقير ،
وأقمشة لا حد لألوانها ولا مقياس
لرقة نسجها أو حلاوة ما عليها من رسوم .
وكانت غرفتى تمتلىء بالهدايا والغرائب ،
وكأننى وحدى الذى أملك كل ما يملك أبى .
ولكننى فى كل مرة يعود ،
كنت أترك غرفتى والقصر
بعد أن أظل ساعات فى المجلس
صامتا لا أتكلم .

❊ ❊ ❊

كان المجلس غريبا لا حد لغرابته .
رجال من رجال الدولة ، من قدامى وجدد .
كلهم يتظاهرون بسماع الصنم الكبير وهو يتكلم .
لقد عرفت بعضا منهم وأنا صغير ،
والآن كبروا ومازالوا يريدون السلطة .
وعدد آخر جديد ، معظمهم من رجالات الجيش ،
أصابتهم الحنكة والخبرة فجأة بعد انتصارات الحروب .
كلهم يتحدثون عن العدل والسلام
الذى يفرضه أبى على ممالك البحور السبع .
ويستخلصون لأنفسهم — قبل أن يذهبوا —
صكوكا غريبة لفتح الطرق أو شق الترع والقنوات ،
أو فرض المكوس والعشور التى يجمعونها باسم الملك .
كنت أرقب ذلك كله صامتا
وكأننى أعرف كل ما يخفون من خفايا .
من غير دربة أو خبرة أو معرفة بالرجال
كنت أعرف .
كان هناك بداخلى صوت رقيق لامرأه ،
صوت كأنه عسل مقطر أو أريج ورود ،
وكان الصوت يهمس فى بدنى فأسمعه بوضوح .
يقول لى ماذا سيقول هذا الرجل ،
وماذا يقصد بالفعل ، وماذا سيفعل .
كانت الجوانب الثلاثة لكل حديث
تفزعنى لولا هدأة الصوت بداخلى ،
وقولها الدائم لى : « اعرف ولا تخف ،
فاذا عرفت لن تخاف أبدا .
انظر واسمع واصمت . »
وكنت أسألها . ماذا عن أبى ؟
فتقول لى أنه يعرف .. وهو يعرف أنه ينتهى ..

⚜ ⚜ ⚜

كان المجلس يستديم أياما سبعة .
فى كل يوم كان الأمر يتعلق بمملكة
من الممالك السبع التى دانت لأبى .
يأتى الحاكم الذى تركه هناك
ليقدم له الحساب عما فعل .
وكان يبدأ دائما بوصف مملكته ،
ويطنب فى وصف الجبال والأنهار والأشجار ،
وطبائع الرجال وجمال النساء .
وكان أبى دائما يصرخ فيه صائحا :
كأنما تقول لى جديدا ، لقد فتحتها بقدمى
وعرفت فيها كل موضع قدم .
أسرع وقدم ماذا تحمل وأخبرنا
ماذا ستفعل حتى العام القادم .
عندما يحول الحول سأراك من جديد هنا .
وكنت أرتجف من صيحة أبى ،
وأتحسر على ما فاتنى من كلام الرجل ،
لأننى كنت أريد أن أعرف .
وإذا بالصوت داخلى يفزعنى بهدوئه ،
وحلاوته .
وهو يحدثنى عن القتلى والمشوهين وعن الجرحى
والفقراء ، واليتامى والأرامل والأطفال الضالين
فى الشوارع ، وحتى عن البقر المسكين الضامر
والماعز المريض فوق الجبال .
ويقول لى الصوت الداخلى :
اصبر . فإذا أردت سأحملك إلى هناك ،
أو من يدرى ، قد تذهب بمفردك .
وعند ذلك سترى وستود لو أنك لم تر ،
ولم تسمع ... فأصمت حائرا ولا أجيب .

* * *

ويأتى الوالى الثانى فى اليوم التالى
ويتحدث عن الجو والأشجار وعن المحاصيل
المزهرة والمدروسة للحصاد .
ويتحدث الثالث فى اليوم الثالث
عن المناجم والجواهر وصناعات الخشب والعاج .
ويتكلم الرابع عن معابد وجوامع ،
ومدارس وأنواع من الكتب والرقاق ،
ومشايخ يعلمون السحر وينطقون بالغيب .
ويشتكى الخامس من قسوة الأرض وجفاف المياه ،
ويتفاخر السادس بما يفعل
بالثورات المسلحة على الحكم الجديد
ويفيد السابع مغيظا لأبى ،
بأن الأرض لم تفتح بعد وأن الجيش ،
مازال هناك ينتظره .
وفى كل يوم تتكرر صرخة أبى : « كأننى لا أعلم . »
ويصمت المجلس وأصمت أنا ،
لأسمع الصوت الذى يتلبسنى
يحكى الحكاية الأخرى عن كل مملكة .
فى كل أرض كان أبى قد ترك خرابا ،
ليس بعده خراب .
وفى كل أرض كانت القتلى والمجروحون والمشوهون ،
هم أبناء الأرض الباقية بعد أبى .
أما الأحياء فهم كالموتى يرتعدون من عودته .
وكان يهزنى الغضب والعجب ،
والرغبة فى الكلام .
فيمسكنى الصوت ويتقبض لسانى ،
وأظل أسمع وأنا أعرف
غير ما أسمع وما يقال .

* * *

وعندما ينفض المجلس ويرحل الولاة ،
وتسقط على الأرض هدأة
كأنها هدأة الموت ،
يغلق أبى على نفسه الأبواب ، ويعيش
فى غرفاته المحرمة .
لا أعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول
وكأنه إله متوارٍ فى الظلام
عن كل رعاياه .
وعند المغرب فى ذات مساء ،
انفتحت الأبواب ليجلس أبى على عرشه فى البهو ،
وليطلب دعوتى إليه من أينما كنت .
وتجرى الرسل فى كل مكان حتى تجدنى .
فى الغابات عند الينابيع أسمع الصوت الداخلى
يحدثنى عن لون جديد من الحياة لم أعرفه ،
ليس فيه زمان أو مكان ،
وليس فيه ازدواج بين القول والفعل ،
ولا سطح يفصل بين الداخل والخارج .
وأقول إننى ما زلت لا أفهم ،
ولكننى أحمل حملا الى أمام أبى .
وفى حزم وصوت قصير يقول لى بوضوح :
أريدك أن تتزوج الآن .
فيقول لى صوتها بداخلى :
قل له ولا تخف أنك متزوج .
فأقول لأبى : إننى يا أبى متزوج .
فيصرخ أبى ضاحكا ويقول : « وأنا لا أعلم !
اذهب يا بنى واخرج من هنا » .
ويدعو له الأطباء .
وينفرد بى صوتى فى الفراش ..



وفى الفراش الذى دخلته ،
هاربا مريدا
تنتابنى الحمى جاهزة معدة .
فى بعض ثوان من تمددى بالبدن
ملقى على الفراش مضطربا فى نفسى ،
غير عارف بماذا سيصير فى الأمر
أو لماذا قلت ما قلت .
تصاعدت الحرارة فى جسمى وانتابتنى الرعشة ،
وتساقط العرق من جبينى ،
وكادت عيونى تغمض فلا أستطيع
رفع جفونها .
وبكل الحرارة كنت أرتجف كأننى
أرقد فى الثلج .
وألتف حولى الأطباء وأغلقت الستائر ،
وتحجبت عنى الدنيا فلم تعد إلا
غرفتى المغلقة علىّ وعلى من فيها
من خدم وأطباء .
وبدأت أشرب الأدوية وتوضع فوق
رأسى الضمادات وأيد عنيفة
تدلك أقدامى ويدى ليجرى فيها الدم
ولا يتوقف .
وجاءنى صوتها من جديد
يقول لى قل : « اخرجوا أريد أن أنام » .
وعندما صرت وحيدا
وغلقت الأبواب ضاعت الرعشة ،
وامتلأت روحى ابتساما وسكينة ،
ورأيتها لأول مرة فى البدن ،
راقدة تحتضننى وحدها فى الفراش .

* * *

قلت وأنا أمد يدى لألمس جسدها ،
وكان دافئا باردا كما يريد بدنى ،
ناعما منيرا بنور فريد من تحت الجلد .
ولما نزعت الغلالة الزرقاء التى كانت فيها
واحتضنت بدنى بساقيها وذراعيها
وأحسست نفسها العسلى على وجهى وصدرى ،
راحت تداعب كل أطراف البدن
وتدفع نفسى كلها للانتصاب
كأننى ألتقى لأول مرة فى البدن
مع قدر لا ينتهى ولا يتوقف
من الروح ، روحى أنا .
لم أعرف من قبل أبدا مثل هذا اللقاء .
كانت بدنا واقعا دافئا باردا .
فيها كل ما فى البدن من بطن وأثداء
وواقع أحمر منفتح به رعشة التلقى ،
ولكنها كانت وديعة لا تبتعد ولا أقترب منها ،
ولكنها تذوب بداخلى وكأنها تسرى فى دمى .
وكانت يدى تعرف قبل أن تلمس
وتصنع باللمس كل ما تعرف وما تريد .
وتنفتح عيونها فأرى نفسى ، وتغمضهما
فأظل أرى فوق الجفون صورتى ،
وألعق بشفتى الرموش ، وأذوق فى داخلى
طعم كل الشعر ، فلا يعود ينقص البدن شيئا .
وأقول لها أخيرا وأنا أسمع نفسى
من أنت ... ؟ .. أختك وزوجتك ..
من أين جئت ... ؟ .. من سنوات كنت بداخلك ..
هل لك اسم ؟
نعم .. اسمى سكينة .

* * *

قالت لى — بعد أن استقر بدنى بداخلها
ولم أعد أريد أو أستطيع أن أبعده ،
فمع كل حركة للبعد عنها كنت أحس أننى سأموت ..
قالت لى ، وهى تضمنى كأننى طفل رضيع :
هذه ليلتنا الأولى ، وفى كل ليله
ستمد يدك لتجدنى فى جوارك .
أنا كنت أختك ومنذ الليلة زوجتك ،
وفى القادم من الأيام وإلى أن تصبح
غير نفسك ،
أنت الحبيب الذى هو لى كل ما أملك ،
وما أريد ، وأنا لك ما تريد أو تملك .
وعندما أعلمك أن الإراده ،
هى العطاء الكامل وأن امتلاكك لى
هو وجودك ،
سأرضعك من لبنى ومن الواقع فى بدنى
طعم المستحيل .
وعند ذلك لن تنسى أبدا ما حدث ،
لأنه سيكون لك ولى هو كل مراتب الوجود .
إنك الآن لا تسمع ولا تفهم ،
ولكنك تختفى فىّ كما اختفيت فيك .
فهل تعرف الآن
معنى المستحيل ؟
قلت لها وأنا أصعد فوقها من جديد :
هل يجهد البدن ، هل أنا مريض ؟
قالت : جهادك وجهدك سعادتك بى ،
ومرضك وصحتك معرفتك بنورى ،
وعندما يطلع الصباح
ستلقى العالم بوجه جديد ...

* * *

لم تنقض الليلة ، ولم أكن أريد أن تنقضى ،
كانت وهى راقدة بجوارى
تضىء بالنور .
وكانت يدها فى يدى ويدى الأخرى
حرة تتحرك فوق جسمها العارى .
لم أكن أصدق أننى ألمس ،
ولكننى كنت أحس فى اللمس وجودا ومعرفة
لم أعرفها من قبل .
من أنت .. قلت . قالت : أنا سكينة ..
أعيش فى عالم غير عالمك
ولكننى من الآن سأعيش بداخلك .
قلت : هل لى داخل لا أعرفه ؟
قالت : الا تعرفنى الآن ؟
قلت : إننى احبك ولكنى لا أعرفك .
قالت : ماذا تريد أن تعرف ؟
ضع يدك على جسمى واعرف ما تريد .
قلت : ماذا سأفعل فى أبى وممالكه السبع ؟
قالت : أنا آتى أولا .
قلت مرة أخرى : من أنت ؟
قالت : أنا المستحيل الراقد بداخلك ،
وفى جوارك ومن فوقك ومن تحتك ،
وعلى مرمى يديك وشفتيك وبصرك .
هل سيمكنك أن تخوننى ؟
قلت : كيف ؟ قالت : أن تحب غيرى ،
تعجز عن حمل المستحيل .
قلت : كيف وأنت بداخلى ؟
قالت : عندما تريد لا أكون .

* * *

قبلتنى .. فاذا بى أنفتح كأننى
أكوان من النور والأنغام ،
ووضعت أصابعها فوق قلبى
فاذا به يتسع حتى لا أعود أعرف
أين أنا ، وعلى عيونى ، فلا أرى إلاها .
وصعدت كما أصعد الجبل .
قالت : أتريد منى ولدا .
قلت : لا . أنت الآن أمى وأنا ابنك الوحيد .
قالت : سيكون لك أبناء من غيرى
قلت : كيف ؟ قالت : ستنسانى وستعجز
عن حمل المستحيل .
قلت : لماذا تحكمين علىّ بما لا أعرف .
قالت : أنا أعرف ، وآلامى بما أعرف لا تطاق .
قلت : هل تتألمين ؟
قالت : كما يرغم المستحيل على أن يصير
ضيقا كالبشر عاجزا عن الزمان ،
محصورا فى المكان والبدن .
قلت : ماذا تريديننى أن أفعل ؟
قالت أن تكون .. أن تكون ... أن تكون ...
قلت كيف أكون .. ؟
قالت أن تحب ، أن تحب
حتى لا تكون .
ومدت سيقانها فوق ومن تحتى
فتدفقت روحى وانسال منى البدن
وأحسست أننى تحت أنهار عديدة ،
تتدفق كلها بى ومن فوق ، وأنا تحت الماء
قد صرت فى كون جديد ..
وأحسست أننى أنام ...



وأخذتنى فى حضنها حتى الصباح ،
بلا كلام ولا حركة
إلا هذا التيار المستمر من الحلم الواقع
بتحقق المستحيل .
لم يكن جوارها أملا أو تطلعا لمستقبل ،
لم يكن جوارها حاضرا مهددا بالانقضاء .
لم يكن جوارها ماضيا أذكره ،
كان الجوار هو كل الوجود .
هو أوله وآخره .
هو مساحاته الممتدة وكل الوعى المفروض به .
وعندما بدأ الصباح يهل
وتحرك حولنا الزمان والمكان
ــ ولم أكن أدرى أين ذهبت بهما ــ
قامت لتقبلنى وفى عينى ، دفعة واحدة ،
غابت كأنها لم تكن .
لم تختف ، ولكنها لم تكن دون نفى أو سلب .
وتذكرت كلماتها عن مراتب الوجود ،
ولم أفهم من أى مرتبة أنا ،
إلا أننى وجدت نفسى غير قادر
على أن أنهض من الفراش ، وأن حمى البدن
قد عادت من جديد
مع فتحة الأبواب ، ودخول الأطباء والخدم .
هل أنا وحيد الآن أمامهم ،
أم هم يرون أثرها فى الفراش وفى يدى ،
وعلى شفتى وفى كل بدنى ؟
هل يمكن للبدن أن ينسى ما وقع ؟
هل يمكن للمستحيل أن ينحسر وأن يتحدد فى التذكر ؟
وصمت أسمع ما يقولون ...

❊ ❊ ❊

الكتاب الثانى

« جوهرة الضياع »

وانقضى شهران وأنا فى الفراش ،
تنتابنى الحمى من الصباح حتى حلول الليل ،
ومع الأيام تتجمع الأطباء
من أنحاء المملكة على نداء أبى ..
يدعوهم بالقوة والرهبة
ويعودون بعد أيام بالخيبة والخذلان .
وترددت الأقوال والتفاسير ،
وكلها تجمع أنى لا يعرف لى مرض ،
وأن الذى بى هو شيء فى القلب
أو فى العقل وأنه ليس من الطب ،
ما يقدر عليه أو يعرفه .
وعلى الرغم من أننى كنت أهذى كثيرا ،
خلال النهار ، إلا أننى كنت أسمع
الكثير من الأقوال حولى وتتجمع
لدى أجزاء ونتف من الأخبار .
وأحوال العباد فى ممالكه السبع .
عرفت أن هناك فى أكثر من مكان
انتفاضات على حكمه الجبار .
وأن البلاد السابعة مازالت لم تدن له
بالخضوع والاستسلام ،
وأنه مازال على رأس جيشه يحارب بلا انقطاع .
« وابنه مريض قد يموت ولايراه . »
« لمن سيترك كل هذا الحكم الواسع القهار . »
« ان السماء تصيبه بالانتقام
فى هذا الراقد على الفراش بلا أمل . »
وأنا .. غارق فى الرجفة والعرق
أردد بلا وعى ، وفى الهذيان
كلمة « المستحيل » بلا انقطاع ...

❋ ❋ ❋

لم تأتنى سكينة ولم أسمع صوتها ،
ولكننى كنت فى الليل وكأنما اسقط
بلا قرار فى هوة من الظلام ،
وكنت بلا انقطاع يغلبنى النوم
من حلول الليل ، فأنام ،
لينفضنى الصبح مع الحمى من جديد .
لم أكن أحس بالجوع وأرفض الطعام
ولكننى لم أهزل ولم أتداعى
وكأننى كنت أطعم فى المنام .
غير أن الغريب الذى لم أكن أفهمه ،
أننى كنت على وعى ووضوح
بأننى لا أعرف فى نفسى عزما على شىء ،
أو قدرة على إلامساك بإرادة .
لم أكن أريد ، لم أكن أريد شيئا ،
لم أكن أحب أو أشتاق
لم أكن أذكر أو أتمنى ،
لم أكن أعرف على وجه التحديد
أين أنا فى الزمان والمكان .
كنت كل شىء أعرفه وفى كل آن ،
كنت أحس البحر والنهر والشجر والأزهار
وكنت أرى الطيور والنجوم والأحجار
وكنت أعرف الريح والمياه والإعصار .
أعرف هذا كله وأكونه بلا انقطاع
وكأن مراتب الوجود ومظاهره
قد تداخلت ولم تعد تنفصل بلا انقطاع ..
بلا انقطاع .. بلا انقطاع .. بلا انقطاع .
الكل يتداخل فى الآخر والآخر يتغير
بلا انقطاع ، وأنا سابح فى العرق
وكأنه كل ما أستطيع من فعل أو إرادة ..

❁ ❁ ❁

وتمر على بدنى وروحى الأيام ،
يطلع النهار فأهذى وينزل الليل
فأنام . وفى داخل هذا التيار
المتصل ، أتقلب بحثا عن نفسى وعن تلك
القشة التى قد تعصمنى من الغرق .
بدأت أحارب فى داخلى من أجل نفسى ،
ومع ظهور الإحساس بأننى قد أموت
يظهر من جديد الشعور المتقاصر بالحياة .
أننى رغم كل شىء حى ، لا أريد أن أموت ،
وهناك ما يدفعنى دفعا أن أنتهى ..
وعند الشعور بأننى منساق ، يتولد الغضب ،
ومع الغضب تجىء الذكرى .
ومع الذكرى والتذكر يزداد الغضب ،
وتحتد فى داخلى الرغبة فى الوقوف
أمام تلك القوى الخفية التى تدفعنى
دفعا لأن أقضى على نفسى .
وبدأتُ أتساءل عن هذا الوهم الذى كان ؟
أين سكينة ، ولماذا اختفت ، وكيف تركتنى هكذا ،
تتصرف بى دون شرح أو كلام .
كانت الرغبة فى التفسير قد تولدت فى نفسى ،
مع الشهر الثالث ،
عندما جاءت فتاة من ليالى الماضى ،
وقالت للأطباء ضاحكة وكأنما تضحك منى :
« إنه مسكون مخاوى وهو لا يحتاج
إلا لأخته التى بداخله .. واسألونى أنا .. ؟ »
ونظرت إليها بغضب وصرخت فيها كما يصرخ أبى
وخرجت باكية ، وعلمت أنها من نظرتى ،
قد أصابها الشلل والهلع المستديم ..



وبدأت أرى بوضوح أن ما بى
هو فعلا سكينة .
ورحت لأول مرة أتساءل أين هى .
وماذا تفعل الآن بعيدة عنى ،
ولماذا امتلكتنى هكذا وتمثلت لى ليلة ،
ثم مضت وكأننى لم أكن أو كأن الذى كان ،
ماكان .
إنها تقدر على الغياب كما قدرت على الظهور .
ولم يكن الظهور لى ، فقد كان لها ،
ولم يكن الغياب برغبتى أو فى قدرتى .
فأنا فعلا لا أملك من أمرها شيئا ..
إننى لا أعرف على وجه الحقيقة من هى ،
ماذا تكون لى ، وما معنى أنها أختى وزوجتى
إذا كانت قادرة مستطيعة ، راغبة
فى الغياب .
وتطلعت فى داخلى أنشد المستحيل الذى أدركته ،
وأريد أن أعاود الإمساك به ،
فإذا به يصبح مجرد ذكرى وساعات من ليل ،
وعندما يصبح المستحيل ماضيا ،
لايعود ممكنا أو كائنا .
فمرايا الماضى تصرع المستحيل وتقتله .
كل ما استطاعت أنها علمتنى الألم .
كل ما فعلت ، أنها جعلتنى كالمجنون أحب .
وها هى الآن فى قعر دنياها وأهلها .
ــ هل لها أهل ؟ هل لها دنيا .؟
ــ نعم وإلا لكانت هنا الآن معى ..
ــ ماذا تفعل هناك ؟ ..
ــ هذا حقها وقدرتها ومعنى ما اختارته
من غياب ..



كيف عاد هذا الازدواج بداخلى ،
كيف صار الصوت الذى أعرفه
هو صوتى أنا ؟
هل قام فى داخلى هذا الزيف من جديد ؟
هل أصبحت أرى فلا أرى إلا نفسى ؟
هل أصبحت أسمع فلا أسمع إلاها ؟
هل عدت من جديد أنا
الذى يصنعه العجز والذكرى والغياب ؟
هل أنا من جديد هذا الذى يريد ،
ولايعرف ماذا يريد ؟
هل أنا من جديد ، هذا الذى يعرف
ولايعرف الا ما لا يعرف ؟
ماذا فعلت بى سكينة ، وماذا ستفعل بى ؟
هل سأستطيع أن أنسى ؟
هل أنا مقبل على الخيانة لروحى ،
ولهذا المستحيل الذى تذوقته ؟
إننى أريد الآن ، فى الغضب ،
أن أوقف التيار الذى لاينقطع
من الوعى والحب لها .
أريد الآن أن أنحدر ،
لأسقط فى المرض الذى هو من حقوق البشر .
وعندما عاودتنى رغبتى التى غرستها فى ،
صحت محتجا على بدنى
أريد أن أنام .
وتوقفت الحمى الصباحية فجأة ،
ورحت أصرخ واعيا من الخوف .
وقلت للأطباء من حولى : لقد شفيت
وأريد الآن فى النهار ، أن أنام

❁ ❁ ❁

وبدأت أستيقظ فى الليل ،
وتستيقظ وحشتى ويشتد توحشى
عن الناس والأخبار التى تحيا
فى القصر ، معى .
كانت تصلنى الأخبار عن أبى
ولم يكن فيها ما يسر .
كانت جيوشه تتعثر ومعاركه المنصورة ،
قد أصبحت متباعدة قليله ..
كان ينهزم الآن فى كل مكان ،
وعدوه الأكبر نور المكان
يقود جيوشا جراره متجهة بقوتها
إلى حدود المملكة .
لم نكن نعرف عن نور المكان ،
إلا أنه ورث الملك بعد أبيه
الذى قتل فى معارك أبى الأخيره .
وأنه قد استطاع أن يشعل الأفئدة ،
وأن يجند الجيوش من كل مكان
ضد أبى وأحكامه الجائره
فى كل الممالك السبع .
كان التيار يشتد ضد أبى وجيوشه
التى أصبحة تتهالك فى المعارك ،
ويصيبها المرض وتتفشى فيها الجبانة
والخيانة والانقضاض عليه من الداخل ،
الذى كان يحكمه مطمئنا غير واع
بما يحدث فيه من جوع وثورات .
وأخيرا عاد أبى إلى القصر مهزوما
يجمع أشلاء جيوشه ،
ولم يحدثنى من جديد فى الزواج .

❊ ❊ ❊

كنت قد أصبحت قادرا على أن أنام
فى النهار ، فلا أرى أبى ،
وفى الليل أخرج متخفيا من القصر ،
فأجوب المدينة حتى أطرافها ،
وأستمع فى جولاتى الليلية
إلى كل أحاديث الناس
دون أن يعرفنى أحد .
كانت هناك حقائق مرة كسيفه .
تصور الفظاعة والبشاعة التى ارتكبها أبى ،
فى كل مكان .
وكان صوت الناس وهو يرتفع ويحكى
يذكرنى بصوت سكينه عندما كانت
تكشف الأستار عما هو مخبوء
فى حديث الولاة والقواد ،
أيام المجالس ، فى عز انتصارات أبى .
ولكن الذى أعرفه ، لم يكن كشفا
أو إدراكا كما كانت تزرعه سكينة
فى نفسى ، ولكنه كان مناظر وحكايات
منزوعة من لحم الواقع ومن دم الناس .
وأدركت أن شرور أبى شركان
قد تجاوزت حدود الوصف
وأن التقتيل والذبح والتخريب الذى
تنشره جيوشه وولاته ،
قد أصبح طوفانا سوف يغرق المملكة ،
وأن المؤامرات تحاك فى كل مكان
ضد أبى ، وأننى أيضا قد أصبحت
مستهدفا للقتل والتصفية ،
حتى يستريح الناس ويخلصوا ...

* * *

وبعد أيام من جولاتى الليلية ،
واختفائى من القصر حتى فى النهار ،
جمعت نفسى وقدرتى
ونفضت عن ذاتى كل آثار قديمة ،
من روح المستحيل الذى تملكنى
أياما طويلة ، وذهبت
لألقى أبى وأحدثه .
وجدت الرجل الكبير قد مال
كالطود المتهدم فى الفراش ،
يجمع القواد حول سريره
ليسمع الأخبار دون أن ينطق
أو أن يأمر
بل ينصت فى خضوع واستكانه
وكأنه سوف ينفجر بالبكاء .
وعندما دخلت عليه صاح : ولدى ،
قمر الزمان لم يعد إلاك
لتقود معركة الدفاع عن العاصمة .
خذ خاتمى واحمل دروعى وسيفى
وقف ولو بمفردك فى الميدان . »
وقبل أن يكمل الكلام أو يصدر الأحكام
أطلق أبى الروح على سريره
وراح فى سبات من الموت كأنه ينام .
وفى صبيحة اليوم التالى ،
كانت الثورة قد عمت البلاد ،
وتقدمت جيوش نور المكان
لتحكم الحصار على العاصمة .
ولم يعد أمامى ، وقد انفض الكل من حولى
إلا أن أهرب متنكرا ، إلى خارج البلاد .

* * *

ومضيت أقطع الفيافى والقفار ،
فوق فرسى الأسود الداكن ،
كأننى قطعة من الليل والظلام .
وعندما يطلع النهار ، أميل إلى
بلدان وقرى صغيرة ،
فأطعم وأستريح ، وقد أعمل عند بعض الناس ،
أو أبيع من جواهرى قطعا صغيرة ،
لا تلفت الأنظار .
كنت قد أخفيت خاتم أبى ،
معلقا فوق صدرى كأنه عبء ثقيل .
وأتقنت تنكرى فلم يعرفنى أحد .
وعند كل مدينة أو قرية ، أنزلها باسم جديد .
وليس مثل السفر لسماع الأخبار .
كان نور المكان قد استولى على عاصمة أبى ،
وعاد من جديد إلى بلاده ،
بعد أن وطد السلام وأحبه الناس فى كل مكان ،
وكانت الحكايات تتغاير عنى من مكان لمكان ،
فمنها من يروى أننى قد قتلت قبل أن أغادر القصر ،
ومنها من يقول أننى قد جننت وهمت فى القفار ،
وبعضها يروى قصة علاقتى بالجان ،
وأن لى أختا قد خطفتنى ، وأخفتنى عن الأنظار .
وأسمع ما يقال عنى ، لى ،
وأحس أننى على جهلى بمن أكون ،
قد أصبحت فعلا معروفا لنفسى .
ينطق داخلى بصوتى وحده ، فلا يسمعه إنسان .
وفى عز أيام الغربة هذه
كنت أحس فعلا أننى أكون ،
وأتساءل هل هذا ما أرادت سكينة منى .. أن أكون .

❋ ❋ ❋

على أننى فى كل مكان ،
كنت أسمع الأخبار عن نور المكان :
من أين جاء هذا الفتى الجميل المضىء
فى الوجه والروح والكلمات .؟
كيف أخفاه أبوه كل هذا الزمان ؟
فلم يكن معروفا لدى الناس أن له ابنا للعرش .
ولم يكن له إلا بنت لا تظهر للناس .
على أن عدل نور المكان ، كان يغطى على الأخبار ،
وعلى القصص والحكايات ،
ليرووا كيف أطعم الجوعان وكسى العريان ،
ورد الضرائب والمكوس للناس .
وأخرج من كل قلب حبه ،
فصار هذا الحب على كل لسان .
إنه لا يرد أحدا عن بابه ولا يمنع إنسان .
والكل يدخل عليه ليحدثه ،
فيقضى حاجته فى التو والأوان .
وقد صاحب حكمه الخير والأمطار ،
وازدهرت الأرض وأينعت الثمار .
وانطوى فى نفوس الناس عهد المارد الجبار .
ولم يعد هناك ظلم أو انتزاع للحقوق .
فالكل آمن مطمئن وكأنهم فى أعوام
كأنها الأحلام .
ومر على أكثر من عام ، وأنا وحدى فى القفار
وصغار البلدان .
لا أعرف أين أنزل عندما يطلع الصباح
أو كيف أمضى الليل
إلا فى السفر والترحال .
حتى وصلت إلى حيث يعيش ويحكم نور المكان .



ووقفت عند أسوار القصر الكبير ،
أسأل نفسى من أكون ،
كان السؤال ملحا قائما
دون أن أعرف على وجه الحقيقه ، من أكون .
فى بداية عمرى كنت كأشجار الظل ،
تحت جذع أبى الكبير ..
وعندما أدركت الإظلام فى داخله ،
تحولت أنشد شمسا ونورا جديدا
فلا أجده .
وجاءتنى سكينة تقول أن النور بداخلى .
وعرفت فى حضنها نورا ما بعده نور .
وفى ليلة واحدة كنت ، أدركت
مراتب الوجود ..
ولكنها مضت وخلفت من جديد ظلاما
مابعده ظلام .
وركبت أسمائى المتعددة فى سفراتى الطوال ،
وفى كل مرة كنت شخصا آخر ،
أحكى عنه الحكايات وأبحث له عن أصول .
وعدت من جديد لا أدرى من أكون ،
حتى وقفت على هذا السور الكبير .
واحتد السؤال بداخلى ، وكان على
أن أنطق ، وأن أقول .
وأن أمنع كل صوت غير صوتى من الظهور .
هل أنا الذى لا أريد سكينة —
كما كانت تقول — أم أنها فى دارها التحتية ،
لايشغل بالها هذا الانسان المجهول
الذى لايعرف من يكون .؟
ووقفت أحاول مع الجنود الدخول ...



لم يكن صعبا أن أدخل ،
فقد كان الملك نور المكان يلقى كل إنسان .
ولكننى أردت فى أول اللقاء
أن أكون من أكون .
فقلت له عندما وقفت أمامه ، ـــ
فتى مليحا جميل الوجه والصوت
يأسر القلب والعين
ويدفع الصدق والراحة للروح ـــ
سيدى ومولاى ، أنا قمر الزمان
ابن الملك شركان ...
فابتسم الملك وكأننى أحكى حكاية مضحكه .
وقال لى تقدم لألمسك وأراك ،
ولنرى كيف يتحقق ما تقول ،
فابن الملك لم يعد له مكان منذ زمان ..
وتقدمت مرتجفا أتملى من وجهه الحسن ،
وأخرجت من حول عنقى خاتم أبى ،
وبعض الصكوك والأوراق قد ختمها
أبى ، ولم ينفذها لموته ـــ للأقطار ..
وإذا بنور المكان يقوم من المكان .
وينزل الدرجات حتى وقفتى بين الناس
ويأخذنى من يدى ويقبلنى فى الجبين ،
ويقول لى أهلا فى بيتك ومرحبا .
لقد جئت ونحن فى كل مكان ننشدك
ونبحث عنك .. تعال .. تعالَ معى إلى الداخل ،
بعيدا عن المجلس لنتسار .
تقص على كل ما جرى وكان . منذ أن مات الملك الهمام .
انت الآن أخى ... وأنا أريدك
فوق كل شىء وبلا أى سؤال ...
ودخلت وجلست على الأريكة نصف راقد إلى جانب الملك .

* * *

ماذا تخبىء لى الأيام ...
ولماذا لم آت من زمن ...
لقد أحسست أننى أريد أن أبكى ،
أو أن أحب أو أن أقايض الدنيا
كلها بتلك اللحظات التى أجلسنى فيها بجانبه .
وضع يده على ومس شعرى وجبينى ،
وقال لى فى صوت كأنه أم :
لقد قست عليك الدنيا وأنت الآن بين يدى
أريدك أن تكون ...
وعندما سمعت كلمته ولم يكمل ، انتفضت وكأنه ،
قد داخل جسمى واستولى على كل مالى من روح .
وبدأت أحدث الملك وهو يسقينى بيده ،
ويحلف بعينيه أن أطعم الفاكهة والمكسرات .
وعندما كان يمد لى يده وكنت أقبلها ،
أحس لها طعما لم أعرفه فى كل الطعوم ...
وقلت له وأنا أضع خاتم أبى فى اصبعه ،
أنا الآن ملكك ولا أريد أن أعيش
إلا فى جوارك وفى نور وجهك ...
كان حديثى يكاد يكون حبا فى يدى ،
وفى شفتى وأنا أحكى عما كان ..
وقلت للملك كل شىء .. كل ما كان ..
قصصت عليه وأنا أسمع لأول مرة
صوتى الحر يسجل الأحداث والحركات ،
وكل ما مرّ على النفس من أسرار ...
وحدثته ، وأنا أنتفض ، عن ليلة المستحيل ،
وكأننى أريد أن أخلص منها للأبد ..
فنظر إلىّ الملك وهو يتحسس جسمى كأننى وهم من الأوهام ،
وقال لى وهو يبتسم ويشدنى إليه :
تعال معى إلى الداخل .. لتنام .. فقد مضى النهار ...

* * *

ودخلت إلى غرفته ورقد بجوارى على الفراش .
كانت الغرفة فسيحة يجوس خلالها الليل
حول قناديل وشموع كثيرة ،
يداعبها هواء رقيق من نافذة عريضة واسعة .
وقبل أن يرقد الملك سار قليلا فى الغرفة .
يرتب بيده ما لا أدرى من الأشياء ،
ويدعو لتجديد الشراب والطعام
قبل أن يصرف الرجال والنساء من الخدام .
وعندما استقر متمددا أخيرا إلى جوارى
على طرف الفراش الخارجى ، كان الليل قد أظلم
فى الخارج ، وانطفأت أنوار الغرفة ،
وتسلل ، من النافذة العريضة ، عطر الحديقة الواسعة
ونور البدر المكتمل ..
وفتح ذراعيه لى ، فلم أتحرك ، فأخذنى اليه ،
وضم صدرى إليه وقبلنى فى شفتى .
قلت وأنا أرتجف من الحيرة وبعض الفهم ..
أنا يا مولاى لا أحسن هذا المقام ،
وأنت لى كالملك الكريم نقاء وصفاء ..
فابتسم لى ابتسامة كأنها السحر
ومد يده يتحسس جسمى كله بلا حساب .
وراح يداعب شعرى ويقبل شفتى من جديد ،
ويحاول حل الأزرار ، عن القمصان والسروال ..
وأمسك بيدى يشدها إليه ويحركها عليه .
وقال لى وهو يقبلنى من جديد :
مد يدك إلى المعهود ، لعله يتحول من القيام
إلى السجود ... »
ووضعت يدى حيث أراد ..
فإذا بها قبه كثيرة الحركات والبركات ..

* * *

التفت إليه كأننى قد وقعت على كنز ،
وصحت مهللا .. أنت من تكون .. ؟
وقبل أن يجيبنى كنت أندفع لأقبلها
فى كل مكان ،
وأرفع العمامة فينسدل الشعر الكثيف ،
وأفتح القمصان فألمس النهد والعكنات
على البطن والحرير الأزهر فى السيقان ..
وخلعت ملابسى مسرعا ألقيها فى كل مكان ،
وأنا أكاد أصرخ من الفرح
وأمتلىء من الشوق بما لم أعرفه إلا ..
وهدأت لحظة أتذكر ..
فقالت لى أنا دنيا زاد ..
ولم يكن لأبى أولاد وجيشه المنتصر يتقدم ،
عندما مات ، فتقدمت أنا فى زى الرجال ،
وقدتُ الجيوش للانتصار ..
ألا تريدنى .. لقد حان الأوان .
وفى الصباح نعلن الخبر ونقيم الأفراح ،
وتصبح — وأنا ملكك — فى ملك أبيك وأبى ..
دون زيادة أو نقصان
إلا ما سننجب من أولاد وبنات .
تعالى إلى يا أخى وحبيبى ..
واقطف ما أردت من الجسد ، وأعطنى ،
فى شفتيك ويديك روحك الغريب
الذى أجهده الزمان ...
وأمضيت الليلة أعريها من كل شىء إلا السروال .
تحله بيديها عندما أريد ، ثم تربطه كما كان .
وأنا أعشق وأعجب لماذا لا تترك السروال .
حتى نامت مرضية فى يدى كالأطفال ،
وقمت من جوارها أنظر فى القمر وأشد السروال ...

* * *

تحرك النور قوياً من القمر ،
كأنما ازداد واتسع
وقمت عاريا أرقب حسنها
وأتأمل ما لها من جمال ،
وأكاد أجزم أننى غير صاح وأننى
كالنائم أحلم بما كان ..
وتحرك فىّ الشوق من جديد كما كان
فرحت بيدى أحاول حل السروال ..
ولما لم تتحرك حللت تكته الرقيقة ،
فاذا بى أجد عند موضع السرة ، فى
تلافيف الشريط جوهرة حمراء .
أكبر مما رأيت فى الدنيا أو سمعت فى الأخبار .
وأخرجتها من حرزها الحريز ،
وأمسكت بها فى يدى ..
وارتديت ملابسى مسرعا لأضىء بعض الشموع .
واقتربت من النافذة لأنظر فى الجوهرة ،
متسائلا عن سرها المكنون فى لونها
وفيما عليها من أحرف أو كلمات .
وأمسكت الجوهرة بين أصابعى غير قادر أن أقرأ النقوش ،
واقتربت من النافذة ، وإذا بطائر أخضر كبير ،
يمرق ليخطف من أصابعى جوهرة السروال
ويقف على طرف النافذة ينظر إلى ،
وأنا أتوسل فى داخلى لأن أمسكه ،
وأن أستعيد من منقاره كنزها الغريب ...
وإذا بالطائر يتكلم من داخلى فيقول ...
لقد آن الأوان لأن تتبعنى إلى كل مكان .
فى رحلة للضياع لن تنتهى ..
حتى تعود كما كنت فى ليلة المستحيل ،
أنا سكينة يا إنسان .. !

* * *

الكتاب الثالث

مراتب الوجود



وخرجت أتبع فى الوجود
ذلك الصوت الذى يتردد
فى داخلى ،
عندما قلت لنفسى كيف أقول
لدنيا زاد أننى قد أضعت
الجوهرة !!
ماذا أقول لوجهها عندما تصحو ،
لو أننى لم أمسك من جديد
بالكنز بين أصابعى ..
هل هى الراقدة الآن ،
كنزى الذى أضعت من جديد
أم هى الكنز الذى لم أملك أبدا .
ووقفت أرقب طائرى الأخضر
يتحرك على حافة النافذة .
وجوهرتى فى منقاره الأبيض
واضحة قريبة بعيدة كالمستحيل .
وعندما مددت يدى لأمسك به
كنت كالطفل الغرير الذى لا يدرك
هذا الفرق الكبير ، بين الجمرة والتمرة ..
وهم ، فى ضوء القمر ، ليطير ،
فنزلت من النافذة إلى الحديقة
أرقب وقفته الجديدة على أغصان الشجر ..
ووقفت قليلا تحت الشجرة ،
وسمعت صوته من جديد
يهتف فى داخلى ..
عندما تمسك أو تفقد هذا المستحيل
ينفتح الكون أمامك وينغلق نابضا لك
بكل مراتب الوجود ..

* * *

وبدأت رحلتى التى لن تنتهى
خارجا من القصر ،
من شجرة إلى شجرة ،
حتى صرنا فى الطريق
إلى خارج المملكة ..
يحط على غصن وينظر بمنقاره إلىّ ،
وأتقدم خلفه لا أعرف ،
إن كنت نائما أم صاحيا ،
وإذا بى أمام نهر كبير .
على شطه الخالى مركب غير صغير أو كبير .
وفى داخله ملاح شاب جميل
يقول لى بصوت رخيم
« أنا يا قمر الزمان ، انتظر أن تأتى معى ،
جوهرتك فى مخلاتى ،
وأنت الآن بقلبك فى مركبى ،
هيا بنا نمضى لنعبر
حدا من حدود الوجود ..
إنه ليس فيك ولا منك
ولكنه ينضاف إلى بصرك وقلبك
ووعيك الذى لايستقر
اركب ، فبعد قليل سيشتد الموج
وستكون وحيدا فى مركبك .. »
وعندما دخلت إلى السفينة الصغيرة ،
أنشد أن أمسك بالملاح
تبدد الرجل واختفى ، وأصبحت
وحيدا فى مركبى .
ويشتد ظلام الفجر حتى يصبح ليلا من جديد ،
ويطل القمر ويختفى ..
والموج يعلو ويشتد وأنا وحدى فى قاربى .

* * *

واشتدت الظلمة حتى كاد أن يصير
لها حجم .
ومضت بى الأمواج عاصفة ،
تعلو حتى تكاد تغطينى ،
وأكاد لا أحس أننى فى مركب .
وتشتد الظلمة ، كأنما يمكن أن تشتد .
وأصبحت أطواقا ملتفة حول بدنى
ورأسى وعيونى ..
لم أعد أعرف أننى أتحرك ،
فحركة الموج تتقلب فى الظلمة
فلا أعرف الفرق بين المياه والظلام .
ولكننى أحس أننى أخترق الموج
وأن الذى يمضى هو كائن
مستقل عن وجودى .
لقد أصبحت منساقا من جديد
بلا اسم ولا ماض .
وليس فى وعي من الظلمة
غير هذا النور الأحمر الذى أذكره
من داخل الجوهرة ،
وكأنها تتقدمنى دائما أو تدفعنى من الخلف
لأقف ، أو أمرق أو على الأقل
أتجه .. إلى أين ؟ ..
هل يدرك المرء فى الماء المظلم
إلى أين يتجه أو إذا كان يسير ؟
لقد أصبح للماء ضغط على صدرى ،
ونور الجوهرة هو كل ما هناك من نور .
وبعد مسيرة لا تقاس .
تلاشت عينى ويدى ،
وأصبح البدن كله ... ماء .

❋ ❋ ❋

لم يكن فى الماء حياة ،
ولكنه ، كله ، كان وعيا بما هو .
ومددت هذا الوعى كما أمد الأطراف ،
فلم ألحق بشىء إلا ما أنا فيه ،
ولم أدرك إلا الذى أنا كائنه .
لم يكن هناك موضوع للبصر أو الذكرى ،
لم يكن هناك أمام أو خلف ،
وامتلأت روحى بهذا القدر من الظلمة ،
الذى كله وجود .
وهاجمتنى لواعج من الجزع والخوف
أن أتبدد .
وكلما أنسى أو أكاد أستسلم
يبرق فى مكان لا أعرفه
وفى لحظة ليست فى الزمان ،
نور الجوهرة .. فأحاول أن أقاوم ،
وكأن خلاصى الوحيد أن أخرج
من الوجود إلى العدم .
غير أننى منساق ، مرغم ، مضطر ،
واقع ، ممتزج ، لا أنتزع ، من هذا الوجود .
وظلت مياهى التى أصبحتها
تحركنى فكأننى أمتد أو أطوى
فى داخلى ، الذى لا أعرفه ، أطراف المكان ،
ليصبح مجموعا فى لحظة ، هى كل الزمان ..
كنت على وشك أن ينكسر الوعى
وأن يعبر حدود الوجود فى الماء ،
عندما سمعت فى الظلمة المائية
صوت سكينة يتردد من حولى ..
« هل تعاين الآن كيف تكون ،
أم تريد أن تعرف وأن تعيش ..؟ »

* * *

لم أعرف إذا كنت قد أجبت ،
وأنا لا أعرف بماذا أجيب .
ولكن الماء ينحسر من حولى ولا أجد
لى بدنا أو قدما لأقف أو أنام ،
غير أن شيئا بداخلى كان يتقدم
إلى نوع من الختام لهذا المطاف .
وتصادمت كأننى أعبر حدا أو سياجا
على حدود غير مرئية .
وإذا بى أتقلب من جديد ،
بكل ما عندى من وعى
فى طين أسود لزج لا أعرف من أين يقع ..
أنا الواقع فيه هو كل المكان ،
وأنا الذى أتحول هو كل الزمان .
ويتحرك لون من الوعى لا أعرفه
بأننى هو هذا الطين الذى أنا فيه ..
كان الطين ينبض ويتحرك وكأنه
يريد أن يصير شيئا لا يقدر عليه .
كان هناك قدر من المقاومة للوجود
مازالت قائمة صامدة بداخلى ، هذا
الغير موجود .
وعندما اتجهت بكل ما بقى فىّ من وعي ،
إلى ناحية العدم ، لأخلص من طيني اللزج ،
سمعت صوتها من جديد :
« إن وعيك كله فى هذه المقاومة
للوجود . أنت لاتعرف أبدا
كيف تكون .. ولكننى أريدك أن تجرب
وأن تعرف هذا العجز الذى فيك
لأن تكون .. بعد أن عرفت
عجزك عن أن تحب ... »

* * *

وتفجر فجأة وهج متجمع ،
وامتد مرتفعا من حولي فى ألسنة من لهب .
وفى لحظات كغمض البصر ،
كانت النار هى كل الوجود الذى حولي .
كنت أرتفع وأمتد مع اللهب ،
وكان فىّ انحناء وهبوط ، بعد
اشتداد الأوار ..
كانت النار ، نارا خالصة بلا حس ولا وعي ،
وكان الضوء الذى تشعه ،
لا يسقط إلاّ على نفسها .
هل يمكن للوعى فى لحظة ،
أن يكون كذلك ؟
هل يمكن للوعى ألا يقع إلا على ذاته .
هل يستطيع الوعى أن يحاكى الوجود ،
أم سيظل الوعى دائما مفارقا
عاجزا غير قادر على أن يكون .
كان سؤالى طويلا ممتدا فى النار
كأنه لهب .. وكان فى الوعى وضوح وتألق
لقيمة الذكرى فى وجه الوجود ،
ولقدرة الذكرى على إحياء العدم .
وترددت قليلا راغبا أن أكون ،
وأن أقتل الذكرى أو أن أمزق النسج الدقيق
لهذا الوعى المغروس بداخلى .
ولكن صوتها يجىء من النور والنار
عاليا باردا يردد فى داخلى ..
« أنت ترفض حتى أن تحترق ،
ولو أنك احترقت لخلصت من وعيك ،
ولأصبحت كالوجود ، وجودا
فى جوارى مستحيل .... »
* * *

« هيا انطلق الآن من عقال النار ،
وارفع وجودك
لكى يختفى فى كل هذا الهواء .
مسارك ممدود مفتوح لا يحده شيء
وارتفاعك مبسوط ممكن إلى ما لا نهاية .
هيا تقدم وارتفع
فأنت الآن هواء لا يمسك به شيء .
لاتفسد الوجود بالحرية
وأعرف أنك لا تستطيع وأنت تذكر
أن تكون . »
ولكننى بكل ما أستطيع من هبوط
تذكرت الجوهرة ..
وحاولت أن أرفع صوتى بالسؤال ،
وإذا بى أرتفع متصاعدا
دون حد أو نهاية ..
هل هكذا يتبدد الوعى وتنقضى الحياة ؟
هل بالوجود يتجه الوعى مرتفعا إلى العدم ؟
وتمازجت أصوات السؤال والإجابة
واختلطت — فيما بقى لى من وعي —
عناصر الجماد الأربعة .
وعرفت أننى لايمكن أن أكون ،
غير هذا الوعي المحدود بالزمان والمكان .
ووجدت نفسى أتهاوى ساقطا
وصوت سكينة يصاحبنى فى السقوط :
« يا إنسانى المسكين ، يا أخى الذى لا يكون ،
تريد الآن أن تعود ،
من رحلة الضياع فى الوجود
فافتح يدك لترى ... »
وأنا راقد على الأرض فى يدى الجوهرة ..

* * *



الكتاب الرابع
مرايا الماضي

لم أكن أدرى وأنا أسير
إلى جدران القصر ،
كم مر من زمان ..
ولكنني فرحا سعيدا بما فى يدى ،
كنت أريد أن أرى دنيا زاد .
كان المكان الذى وجدت فيه نفسى ،
راقداً وبيدى الجوهرة ،
أقرب ما يكون للقصر ، بل ما كدت
أرفع عينى من رقدتى حتى رأيته ،
وأدركت أننى وضعت هناك ،
وأن الزمان الذى مر على منذ خروجى
فى ليلة الضياع ،
لا يمكن أن يحسب أو يقاس
أو أستطيع أن أذكره .
لقد لعب بي الزمان والمكان ،
فلم أعد أعرف أيهما لي وأيهما أقطع .
كانت ملابسي جديدة
وكأنما قد أُعِدِدت لأكون تاجرا كبيرا ،
يتدلى من كتفى كيس منضد مكسو ،
قد زين بالفصوص من المجوهرات ،
وفى داخله صناديق صغيرة ،
فى كل صندوق حلية أو زينة
مما تلبسه النساء : سوار ،
عقد ، حليه للقدم ، خواتم للأصابع
متعددة الشكل والألوان .
وحلقات للآذان غريبة التصميم والحركات ..
وتيجان للشعر تضوى باللآلىء والمرجان .
كنت ـــ وأنا لا أدرى ـــ معدا لشىء لا أعرفه .



وقفت على باب القصر أريد أن أحدد
كم قطعت من المكان وأمضيت فى الزمان ،
فلم يكن بداخلى ما يدلنى على شىء من هذا
ولم أكن أستطيع أن أسأل أحدا ،
ـــ وأنا صاحب ما حدث ولا يعرفه إنسان .
سألتهم على الباب : لما هذا السواد على الأبواب .
هل مات الملك ، قالوا نعم ،
بعد عشرين عاما من الحكم عادت
دنيا زاد وحيدة فى عالم الرجال ،
لا تستطيع أن تعود رجلا كما كانت
وقد أصبح لها من زوجها طفلتان
كبرتا وأصبحتا كفلقتى البدر
فى التمام والكمال ..
ـــ هى إذن موجودة ، تنير المكان ،
فمن هو الزوج الذى كان ..
ـــ أحد أقارب الملك شركان .
كان اسمه كاسمها وهى تحكم
وتقود الجيوش .. كان اسمه أيضا ، نور المكان .
ولم أسأل أكثر مما سألت ،
ولم أعرف من كان الزوج فى أقاربى .
حتى زادونى فى القصة والتفاصيل
بما لم أكن أريد أن أسمعه ، أو أن يقال .
وعندما سمعته لم أعد أعرف أين كنت
أو ماذا حدث لى فى كل هذا الزمان .
قالوا إنها تزوجت من زمان بعيد
بعد أن اختفى من جديد قمر الزمان
ولم يعد يسمع عنه إنسان .
وعاشت فى ظل زوجها الجديد
تحكم بالعدل والإحسان

* * *

وبعد عشرين عاما
بالتمام والكمال ، لم تعد دنيا زاد
كما كانت فى أيام الحرب والقتال .
لقد أصبحت حكيمة جليلة
لم تكبر ولم ينقص حسنها بل زاد .
لكنها قد أصبحت قليلة الكلام
يندر أن يمر بوجهها الابتسام .
قلت أريد أن أدخل لأراها .
فأنا تاجر كبير ، أعرض خير ما فى الدنيا
من حلّى للملوك والملكات .
وعندما قلت ما قلت أدركت أننى أقضى
على نفسى بما حكمت به الأيام .
لقد مرت الأعوام وأنا لا أدرى
أين كنت أو ماذا فعلت أو قلت ،
وكيف أستعيد بلا ذكرى ، هذا الماضى
الذى ضيعته فيما لا أدرى من حياة .
وقررت أن لا أسأل من جديد ،
وأن أعالج فى داخلى الصمت حتى يتولد ،
وأن أنسى فيما نسيت من أكون ،
حتى أستطيع أن ألقى دنيا زاد
وأن أتملى من نورها ومن حسنها
لعلى بسرها القديم ، أعرف من أنا
عندما أرد الجوهرة وأعرضها فيما أبيع
من مصاغ ومجوهرات .
قلت أريد أن أدخل لأرى الملكة
فأنا قادم من آخر الدنيا
لأدخل على قلبها الفرح ، وعلى وجهها الابتسام .

* * *

ودخلت إلى حيث نورها يضيء المكان .
كانت فى آخر البهو ،
نورا أعرفه وأرى ما يشيعه
من نعمة لا يدركها أحد .
ومشيت أتعثر فى طول البهو
حتى وقفت أمامها .
وقلت : مولاتى ، لدي حليّ ومجوهرات ،
وأريدك أن تنتقى وأن تختارى ،
وكل ما اخترت أو أردت ،
هو تحت قدميك بلا سعر أو قيمة .
فنظرت إلي وعرفت الرموش ،
وحركة الأجفان ، وأشارت بيدها
أن اجلس ، فعرفت الكف وفقرات الأنامل .
وذكرت النور الذى يضىء فى كل ركن من جسمها .
وجلست عند أقدامها ، أرقب من طرف خفي ،
إبهام القدم وما لها من باطن منير ،
ولا أكاد أرفع عينى من الأرض إلا متلصصا
حتى لا يكشفنى ما أرى من نور .
وراحت تفتح الصناديق واحدا بعد الآخر
وهي تشيح بيدها وتغلق على ما قد رأت ،
وكأنها لا تريد شيئا ولا تستطيع الابتسام .
وظلت تفتح صناديقى دون أن تتكلم ،
حتى فرغت وقالت وهى صامتة
لقد رأيت كل شيء ولم أعد أريد شيئا ،
فاجمع بضاعتك وغادرنا يا تاجر
بعد أن تقضي فى القصر أيام الراحة والإكرام .
فمددت يدي فى مخلاة ثوبي وأخرجت الجوهرة ،
وأنا لا أستطيع أن أتكلم ، قدمتها بيدى .
وعندما رأتها قامت واقفة لتصرف كل الناس .

* * *

ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك
إلا أننى سمعتها تقول :
قمر الزمان ، لماذا تأخرت كل هذا الزمان ،
كيف تعود لتضعنى وكأننى محصورة
فى المكان . كيف تفعل هذا وتعود ،
وأين كنت كل هذه الأعوام ؟!!
أنا لا أدرى يا مليكتى أين كنت
ولا من أكون أنا الآن .
أنا أعرف النور ولا أنساه ، وأعرف
ماذا يعتمل فى داخلى من حب لهذا الكيان .
وغير هذا ، لا أعرف إلا أننى لم أكن لأعود ،
وجوهرة السروال ليست فى يدي .
وأنا الآن معروض عليك كما تعرض فى الأسواق
بضاعة نافقه لا تشرى ولا تباع .
ولكنى لا أملك إلا هذا الوعي الجديد
بما لك من نور يضىء المكان .
قالت : هيا بنا للفراش لنعرف ماذا تفعل
بنا الأيام . وعلى صدرى قل لى
، كما فعلت من قديم ، كل ما كان .
مولاتى : أنا لا أعرف ولا أستطيع الكلام .
قالت : هل تستطيع فى حضنى أن تنام .
قلت : أمرك يا مولاتى نافذ مطاع ،
فافعلى ما شئت بهذا العبد المارق من كل إحسان .
واغفرى إذا أردت ما فعل وما كان
أو اطردينى من جديد إلى حيث لا أعرف
أحدا ولا يعرف عنى إنسان .
قالت : قمر الزمان أنت الذى كنت أنتظر
دون أن أستطيع أن أنتظر ،
فلم لا ننسى الماضى ونغير المكان .

* * *

وعندما صارت فى الفراش
عارية كزورق من عنبر ومرجان ،
رحت من جديد أتأمل النور ،
وأعرف الأركان فى البدن العريان ،
وأمد يدي فكأن الذي كان ، ما كان .
وكأنى لم أغادر مرقدي بجوارها
ساعة أو أوان . وضمتنى إلى صدرها
وأحسست أن كل ما عرفت من وجود
قد عاد من جديد يسرى كما كان ،
فى هذا البدن الذى غادرنى
منذ كنت فى الغرفة عاريا ، أرقب عند الشباك ،
نور الجوهرة فى يدي ..
لقد ردتها من جديد إلى السروال ،
قالت لى : قم وافعل ما تريد بالسروال ،
فقد أصبح الكل ملكك من جديد ، حتى الجوهرة .
إننى أحبك ياقمر الزمان ،
فهل تفهم ماذا يعنى هذا الزمان
الذى مضى ، وأنا أنظر وأنتظر أن تظهر ،
وأن تمسك ، فى اليقظة لا فى المنام ،
بكل ما فى بدنى من شوق وانتظار
وبكل ماف روحي من حاجة ، لما فى روحك ،
من قدرة على المنح والغفران .
قلت يا مليكتى سامحينى .. أنا لا أستطيع ..
قالت : لا . بل تقدر على الزمان ،
فأنت هو القادم وكل قادم هو أنت ،
بلا نقصان أو خسران . أنت .. أنت ..
وقبلتنى حتى ذبت من جديد وأصبحت
وجودا لا أعرف جوهره ، ولا أعرف
معه الوعى والنسيان .

* * *

وفى الصباح كانت دنيا زاد تمسك
مقاليدى من جديد ، وترسم لى كيف تكون الحياة .
فقد أعلنت الزواج وفرضتنى على البلاد
ملكا يحكم ويعدل بين العباد .
وكنت أعمل كل يوم طول النهار ،
أذكر أبى أحيانا وهو يحكم ، وأغار
من سطوة قدرته ، فأجهد ما استطعت
أن لا أكونه من جديد .
وعندما يحل الليل ، أذهب لأمضى الساعات
فى أحضانها فتعطينى ما لم يعط لإنسان .
فإذا جاء الصباح وأرغمتنى على الظهور للناس ،
كان همى وتفكيري هو حسنها
الذى أتركه وحيدا فى النهار .
وبدأت أتساءل فى نفسى : ماذا فعلت دنيا زاد
وأنا ضائع مفقود فى مراتب الوجود
وهى فى زمانها المخفى مالكة متحكمة ؟
ماذا فعلت ، وكيف فعلت ، وكيف كان الزوج ؟
ماذا كان يفعل وكيف كان ينام ،
وكيف جاءت بالفتاتين ، وكم تركها
وكم هجرها ، وكم كانت تحبه ، وكم كانت
تشتاقه وكيف يكون هذا كله فى الزمان ؟
وماذا يفعل هذا بى وأنا فى الآن
أحب هذا الكيان وأريد أن أملكه ؟
فاذا سألتها بالليل قصت على طرفا من حياتها
أيام الضياع فيزداد جنونى للسؤال ،
ويزداد شوقى لأن أرى وأسمع كل ماكان ؟
فأسأل من جديد فتجيب ببعض الأخبار .
وأزداد شوقا وأسألها هل أنت لى ؟
فتقول : كما لم أكن أبدا لأحد .

* * *

وأعود فى الليل أسأل من جديد ،
أنظر إلى جسمها وإلى شعرها وأسأل
فى نفسى مرة ، ومرة أوجه السؤال ،
إلى قوة أو إرادة لا أعرف مكانها ،
وأسأل لماذا ؟ لماذا فعلت ما فعلت
يادنيا زاد ؟ لماذا أعطيت نفسك
وكيف أعطيت ، وماذا أبقيت ؟
وكيف أمحو الأخذ والعطاء من الروح والبدن ؟
وبدأت أسئلتى تفسد على الليل ،
فأقوم مجهدا للنهار ثائر النفس مستحيل الروح .
أريد أن أحطم كل شيء ، وأن أكسر
هذا الستار المسحور الغامض
الذى يضعه الماضى على قلبها وجسمها .
وأسأل من جديد فتجيب ،
وكل إجاباتها لا تشفى ولا تروى لى غليلا .
أنا لا أريد أن أعرف ، بل أريد أن أكون ،
كل هذا الذى كان ، وأن أراه
ملء العين ، وأن أسمعه بكل أذن ،
وأن أسجله مرويا محكيا فلا يخفى علىّ فيه
حركة أو صوت أو ضوء .
وعندما أطلب ذلك منها ، تقول لى : هذا مستحيل .
إننى ملكك ولك فاترك الذى تريد ،
فليس له قيمة ولا كيان ، وحبى يغطى
كل الذى فات ، وأنا لك كل الأوان وكل الزمان .
وأظل أنظر إليها وكأنها تخوننى كل آن ،
وكأن الذى كان أيام الضياع ،
هو كل الذى أريد أن أكونه أو لا أكون .

* * *

وأعود فى الليل أسأل دون سؤال ،
وأنظر وكأننى أرى الذى كان ،
وألمسها فارتعد لأن يدي تمس فى المكان
يدا أخرى أو شفة ،
وكلما أخذت من حبها ازددت شوقا
لأن أعرف كيف كان يأخذ هذا الحب
وكيف كان يعطي ، ومن الذى أخذ ومن الذي أعطى ومن
القادر على أن يعرف وأن يذكر
كل ما لها من ليل وإصباح ؟
كيف كانت تأكل ، وكيف كانت تنام
وماذا فعلت فى الوحدة أو فى صحبة الأنام ..؟
واحتدت أسئلتى وأصبحت كأنها حمى
تمسك برأسي وأفكارى فلا أدرى
كيف أتكلم أو أرى أو أحكم بين الناس .
لقد أصبحت مملولا لا يشبع لي جوع لجسمها .
وكلما ارتويت زاد العطش لهذا المستحيل
الذى أنشده : أن أعرف وأن يصبح
أمامى ، بلا حد ولانقصان
مرايا ساطعة للماضى الذى كان ،
أراها وأراه ، أسمعها وأسمع
ما قيل أو صار حول كنزى الذى
تقول إنه ملكي الآن .
ياربى إننى أمرض ، وأكاد ، أكاد أن أجُن
فأنا لا أعرف ماذا جرى لي وماذا جرى لها
وعلىّ وأنا لا أستطيع أن أغرق فى الحاضر
وأن أصنع من الواقع كل الحياة —
علي أن أترك السؤال وأن أغرف
من بئر النسيان حتى أنام ...

* * *

وأزداد فى كل يوم ، جنونا وقسوه .
ويعرف الناس هذا فى أحكامى
وتضطرب الأوامر الصادرة منى ،
ويتحرك الولاة والجند من حولى
لينفذوا غضبى ويصبوه على الناس .
وبدأت أفكر فى الحروب وفى الخراب
وكأننى أريد أن أحطم كل ما هو كائن ،
لأصل خلفه إلى ما كان .
وأخذت دنيا زاد تحكي لي من جديد
نتفا من وحدتها ومن بحثها عن ما تحب .
وكلما حكت لى كم كانت شقية مع الذى مات ،
توجست خيفة من فسحة الحرية ،
ومن دفقة الرغبة والإعطاء
فى هذا البدن الذى أعرفه الآن .
فأجن من جديد من الماضى الذى ضاع .
وأجن من عجزي على تحديد السؤال
وأرتد خجلا إلى صمت يمور بالسؤال .
وأصابتنى الحمى من جديد
وأرقدتنى فى الفراش .
وبدأت أفكر فى سكينة
ودنيا زاد تفكر فى الأطباء .
ومع الحمى هجرتها فى الفراش ،
فيزداد جنوني بالسؤال ، ويصبح
الطغيان فى الأحكام ،
الطابع المفروض فيما أصدره من أحكام .
وبعد أن مضت شهور ثلاث
ودنيا زاد لا تجيب بما يسكت السؤال .
جعلت أبكي وحدي فى الفراش ،
حتى سمعت سكينة من جديد ، تواجهنى بالسؤال .

* * *

وفى ليلة متفحمة من الظلمة ،
فى خارج الغرفة وفى داخلي .
ودنيا زاد فى فراشها بعيدة عني ،
تنتظر أن يزول البعد الجديد
وقد جعلها تعجز عن أن تجيب
أو أن تعطى للبدن والروح
سكينة المستحيل
الذى أنشده ،
فى هذه الليلة ، وأنا وحدي ،
جاءت سكينة فى ثياب عجوز هالكة ،
وفى داخل الغرفة ، أخرجت من صرتها
سبع إبر طوال لها رأس أسود صغير ،
وقالت لى وهى تضحك من فم
متهدم الأسنان :
إذا أردت أن تعرف وأن ترى
فاغرس الإبر كلها فى أركان البدن
من دنيا زاد . لا تخف ولا تتراجع
ولا تجبن من الألم والأوجاع .
سوف تبكى وتستحلفك ، سوف تضرع لك
بكل وسيلة وبكل كلام ،
فإن أردت وعجزت عن أن توقف السؤال
فاغرز الإبر فى جسمها
ترى كل ما تريد ،
وتسمع كل ما كان
وتعرف وحدك ما قد نسيته
أو أخفته عن كل إنسان .
اغرس الإبر . ادفع بالوجع فى كل مكان ،
تعرف كل الذى كان ،
ولا تبك بعد ذلك إلا على نفسك يا إنسان .

* * *

نظرت فى عيني سكينة
لأعرف ماذا تريد أن تفعل بى .
وقلت لها وأنا أكاد أجن مما تقول :
ماذا حدث لي ، ماذا فعلت بي ؟
لماذا تركتنى لدنيا زاد ،
ولِمَ لم أخترق الوجود إلى حدود العدم ؟
قالت وهى تضغط على أسنانها لتخفيها :
كنت فى كل آن تطلب المستحيل
ومن يطلب المستحيل يعاين الثمن .
ولقد دفعت ما دفعت وأمامك من جديد
عذاب ما بعده عذاب .
عندما كنت فى حضنى رفضت لي
أن أختفي أو أظهر كما يريد المستحيل .
وأردت أن تصنع المستحيل عاجزا عن أن تقبله ،
وعندما أخذتك للوجود كي تعرف أو ترى
كيف يوجد المستحيل الذي بلا وعي أو ذكرى .
كنت فى قلب الوجود ، متعلقا بالجوهرة
وبالمستحيل الذى عشقت فى الحب الجديد .
فرددت عليك الجوهرة ، ورددت عليك الحياة .
وإذا بك فى الفراش الجديد ،
تطلب هذا المستحيل من جديد .
إنك تريد أن ترى وأن تسمع
كل ما كان فى الماضي كي تعرف من تحب .
ما أقصر عقلك وما أضيق روحك
عن رحابة الوجود ووجود المستحيل .
إنك تفسد بلا قيمة
كل ما يعطى لك من حب أو وجود أو معرفة .
فهل ترتدع ،
أم ستمضي فيما هو مكتوب من عذاب ؟

❃ ❃ ❃

وأسقطت فى يدي الإبر واختفت ،
وأنا فى الحمى أريد أن أقوم .
وبدأت مجنونا أعي الوحدة القادمة
بعد أن اختفت سكينة .
فتسللت على أطراف أصابعى ،
إلى حيث ترقد دنيا زاد ...
وعند جبهتها ، فى وسطها ، غرزت إبرة ،
وبدأت أرى الصور والأحداث ،
وأسمع صوتها وهى تشهق فى الفراش
ورأيتها تتقلب وفى يدها أجساد لا أميزها ...
نعم ... رأيت وسمعت ما لم يكن
من الممكن أن يقال أو أن يحكى بالكلام .
ورأيت الدم الأزرق ينسال من جسمها
ويدى تغرز الإبر
فى كل مكان من البدن المستباح .
وبدأت أسمعها تستغيث وتستحلفنى ،
وترجو أن لا أكون ، وتطلب
أن أموت وأن أذهب للضياع .
وسبتني بكل لسان ، وأخبرتني أنني لست إنسانا ،
ولا أعرف ما الحب الذى فى القلب ،
ولن أعرف ما السعادة فى الجسد
أو فى الروح .. وقالت : ابعد .. ابعد عني ..
واذهب .. اذهب إلى حيث جئت ..
إلى حيث أبيك .. وراحت تسبني من جديد ،
وأنا أغرس الإبرة الرابعة
فى بطنها ، والخامسة فى أقدامها معا ، والسادسة
حيث لا أدري .. حتى السابعة غرزتها ..



وكلما تعالى صراخها وشاهدت مالم
أكن أدري أنه كان ،
ولم يكن يخطر لي على بال
وسمعت ورأيت جسمها المستحيل
تتحسسه الأيادي والعيون ،
ووقفت عاجزا عن أن أوقف صراخها ،
أو أن أوقف ما يصدر منى من صراخ ،
ورحت أجأر كالجريح المطعون ،
وقمت أفتح النافذة لأنشق الهواء ،
وإذا بدنيا زاد تنتفض من الفراش
وتستحيل تحت عينى إلى بجعة بيضاء ،
كبيرة الجناح والمنقار
وإذا بها تهم لتخرج ، طائرة من الشباك ،
إلى السماء المظلمة لا ينيرها إلا رفة الجناح .
ووقفت أنظر خلفها عارفا أنها
لن تعود .
وأنني وفى يدى الجوهرة
قد أصبحت وحيدا تماما فى كل الوجود .
وأن هذا المستحيل الذى ارتكبت ،
قد كلفنى كل الحياة .
فسقطت على الأرض أبكى وأعض البساط
وأنا أراها طائرة وأسمع سكينة تقول :

« لقد رأيت ما رأيت
فما نفعتك الرؤيا .
لقد سمعت ما سمعت
فما عقلت المعنى
وأمسكت ما أمسكت
والكل من يدك يتسرب .
لِمَ لم تسأل عن الجوهرة ،
وظننتها سرا لا يفض ؟
عليها فى وسطها
مكتوب اسمك ، وأنت
لم تقرأ الحروف .
وعندما حان الأوان
وجمعكما الزمان
كانت روحك الجائعة
قد استعصت على المعرفة ،
واستعصت على الوجود .
واستبد بك الشوق الأثيم
إلى محض المستحيل .
وهذا يا إنسان
هو المستحيل بلا قيمة .
وإن لم تقم
فى المستحيل القيمة
أصبح النشدان
تعديا على الوجود
لا يرحمه الرب ولا يغفره إنسان .

١١ / ٣ / ٨٨ ــ ٧ / ٦ / ١٩٨٨م
الريـــاض

للمؤلف :

١ ــ حديث شخصى (**قصص**)	
أوراق زمردة أيوب (**رواية**)	الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢
٢ ــ كتاب حرف الحاء .	المستقبل العربى ١٩٨٨
٣ ــ تلال من غروب .	الكتاب الذهبى ١٩٨٨
٤ ــ السين والطلسم .	مختارات فصول ١٩٨٨
٥ ــ وراء الكينونة :	
أقسام وعزائم	أصدقاء الكتاب ١٩٩٠
٦ ــ إعادة حكاية حاسب كريم الدين	
وملكة الحيات	أصدقاء الكتاب ١٩٩٠
٧ ــ المستحيل والقيمة	أصدقاء الكتاب ١٩٩٠
٨ ــ أجازة تفرغ (**تحت الطبع**)	أصدقاء الكتاب
٩ ــ الدم والانفصال (**مسرحية**)	
١٠ ــ مرجريت إمرأة غربية (**مسرحية**)	

رقم الايداع : ٣٧١٦ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى : ٨ ــ ٠٠ ــ ٥٠٩٠ ــ ٩٧٧ :I.S.B.N

وإذا كان الوعى عاجزا عن أن يدرك المستحيل وكانت الذكرى — بطبيعتها — استحالة للمستحيل فإن هاتين الخاصتين للبشرية — الوعى والذكرى — لا تملكان لتسجيل وتحقيق عجزهما إلا استخدام الاستعارة ، والبديل الممكن وهو الخلق الفنى . فالفن بطبيعته حركة للتواجد ، كعمل وكشىء خارج عن الذات ، هو أقرب ما يستطيع الإنسان لمعاينة وافتعال اكتمال الوجود أى تحقيق المستحيل . وعندما ينظر الإنسان أو ينتظر وقوع المستحيل يكون فى الحقيقة — وفى الزمان والمكان الواقعيين فى حالة حب . فالحب وحده الذى يقبل وهم اكتمال الوجود أى تحقق المستحيل ، ومع القبول تقوم القيمة الموجودة خارج الذات . فلو أنك أحببت وقلت بوعيك أو تذكرك أن ما تحب غير مكتمل الوجود فأنت أولا تنفى الحب وتلغى القيمة وأنت ثانيا تعيش فى الزمان والمكان فاجعتك البشرية .

بدر الديب


Bibliotheca Alexandrina
0494583

